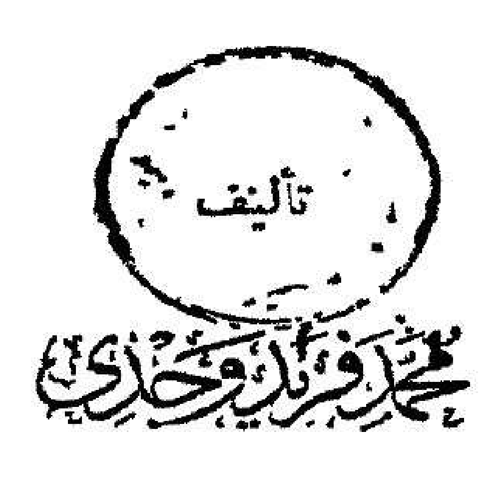
الإسلام دين عام خالد

تحليل دقيق لأصول الدين الإسلامي تحت ضوء العلم والفلسفة



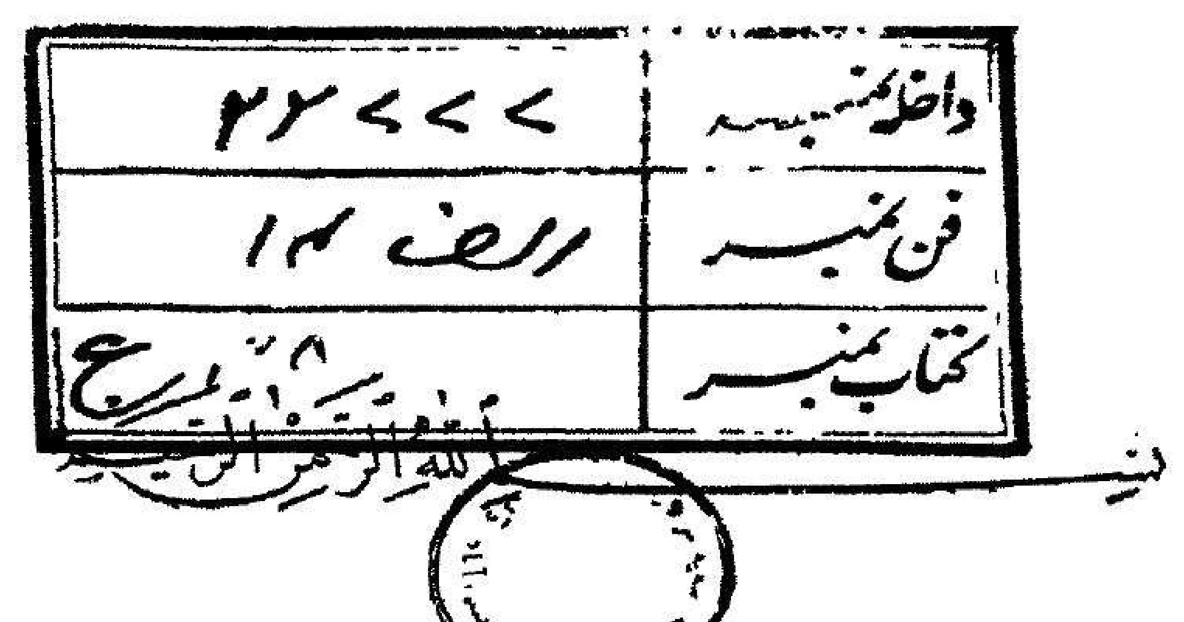
تأليف

محمد فريد وجدي

الطبعة الأولى

(طبع في مطبعة دائرة معارف القرن العشرين)

سنة ١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م



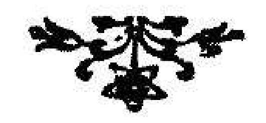
الحمد لله الذى بحمده تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على خاتم انبيائه محمد صاحب البينات ، الداعى لوحدة الانسانية والديانات ، وعلى جميع اخوانه المرسلين الذين ارسلوا للعالمين على اختلافهم فى الاجناس واللغات ، صلاة وسلاما وعلى آلهم وتابعيهم ما دامت الارض والسموات .

(اما بعد) فقد كنا ننزع دائما الى وضع رسالة تكشف عن كنه الاصلاح العام الذى جاء به الاسلام للعالمين كافة ، فيكون بيد كل طالب للحق نبراسا يهتدى به فى ظلمات الشكوك التي طمت فى هذا الزمن الاخير حتي ايأست أهل الثقافة من صحة الدين ، وحملتهم على نبذه والمضى فى اغراضهم الدنيوية ، منطوية قلوبهم على الريب والشبهات . وهذه الحال تنافى الحياة الكاملة . فان للروح مطالب معنوية ، كما للجسم مطالب مادية ، فمن لم يصل للتوفيق بينهما عاش معيشة ضنكا ، وحشر يوم القيامة اعمى ، فضلا عن انه يمضى حياته يدفعه شك ، وتتلقفه شبهة ، على حال لا تتفق والغرض منه . ولا تستقيم والحكمة ، فلما كنا ننزع الي وضع رسالة تشفي الصدور من تارات الشكوك ، وتقيها وخزات الشبهات ، حتي كانت مسألة كتاب (مسائل فى الدين)

الذى كشف طالب فى الجامعة الامريكية عن أمره، ونشر عنه ما نشر ، فطالبت الجرائد العارفين برد ماورد فيه من الشبهات على الاسلام ، فانتدبنا لهذا الامر الجلل ، وقمنا بنشر فصول فى جريدة الجهاد ، ومازلنا نتتبع تلك الشبهات حتي اتينا عليها ، ثم رأينا أن نتبعها ببحث فى الاصلاح العام، الذى اتى به الاسلام، على ضوء العلم والفلسفة،ففعلنا، حتي أتممنا ما تصدينا له، فكان حقا علينا بعد ذلك ان نعمم نشره، فطبعناه على شكل كتاب ، هو هذا الذى نقدمه للقراء اليوم .

ولا احب ان يفوتنى هنا ان اثنى الثناء كله على حضرة الكاتب الكبير محمد توفيق دياب صاحب الجهاد،فقدعنى بهذه الابحاث عناية خاصة ، حتي وضعها، على طولها، فى قسم المحليات لكيلا تفوت احدا من القارئين ، وهى عناية تكشف عن حب صادق للحق، وغيرة كاملة عليه ، وتفان صحيح على نشره ، فله منى شكر لا احصيه،وله من الله الاجر الذى يرضيه .

محمد فريد وجدى



الاسلام دين عام خالد

مدخل على هذا البحث

نشرنا هنا مقالات رددنا بها على شبهات أثارها على الاسلام مؤلف كتاب يدعى (مسائل فى الدين) . وأمثال هذه الحملات على الاسلام من حين لحين تدل على أن القائمين بنشر بعض الدعوات الدينية يتخيلون أن الاسلام يمكن ملاشاته وصد الناس عنه ، وهذا غرور كبير فان ديناً جعله الله خاتما للاديان ، وعاما لجميع بنى الانسان ، وباقيا الى آخر الزمان ، لا يعقل الا أن يكون من المناعة بحيث لا يستطاع هدمه ، ومن استيعاب الحجج ومسايرة مذاهب العقول فى الاستدلال ، بحيث لا تنال منه شبهة ولا تلين قناته لغامز ، مهما توسع فى الاساليب . فان كان خارج دائرة المقررات العلميه رجال يبذلون أوقاتهم وأموالهم ليقطعوا الطريق عليه ، معتمدين على المغالطات والارجافات ، فهم اهون من أن يخشى منهم على هذا الدين . فان الاصول القائمة على الحقائق العلمية الخالدة لا يمكن تقويضها بمثل هذه المعاول الواهية ، وقد أشار الكتاب الى ذلك بقوله تعالى فى أمثالهم : « ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون تكون عليهم حسرة ثم يغلبون »

وقد رأينا أن ننشر فى «الجهاد» مقالات نبين فيها ماهية هذا

الدين ، وكيف انه يقوم على الحقائق الخالدة ، ونشير الى وجوه كونها تصلح لجميع البشر، ونبين كيف أنها لاتقبل الهدم، وانها ستتغلب على جميع المذاهب فلا يكون غير الاسلام دين فى الارض . وهو بحث طويف نرجو أن نبلغ منه الحد الذى يبل الصدى ويشفى الصدور ، ولكن ليسمح لى القراء بتقدمة ثلاث مقدمات لابد منها لاقامة هذا البحث على قرار مكين، والله المستعان:

ماهو الدين على اطلاقه

نحن إن بحثنا فى الدين فانما نبحث عن الاصل المعنوى الذى يقوم عليه من الروح الانسانى الصميم ، لاعن الاشكال والمظاهر الخارجية التى لا تقف عند حد ، وتختلف باختلاف الامم ومكاناتها من التطورات المادية والادبية .

أنظر للانسان تر له وجودين متميزين، أحدهما صورى مادى مرتبط بمادة الكون ارتباطا وثيقا بحيث تسرى عليه جميع نواميسه، وتعمل فيه جميع قواه كما تعمل فى أحقر ذرة منه . وثانيهما روحانى مرتبط بشىء أرقى من مادة الكون ، وعالم أرفع من عالم النواميس والقوى التى لا تشعر بوجودها : هى روح الكون نفسه ، تلك الروح التى أوجدت الكون وأخذت فى تربيته واعداده للحياة وتكميله على سنة التدرج حتى تبلغ به وبكائناته أوج الكمال الذى أعدته له .

هنا يخطر للمفكر العصرى خاطر فيهمس فى نفسه :هل للوجود روح حتى يصح أن ترتبط بها روح الانسان ؟ هذه شبهة مشروعة تستحق الحل والاعتبار . لانها ترد على كل من يفكر فى هذه

المسائل .

نعم أن للوجود روحا كماله مادة ، ألا ترى فيه تحليلا وتركيباً ، وايجادا واعداما ، وتصويرا وإبداعا ، وتوفيقا ونظاما ، وتدريجا وإحكاما ؟ وفوق هذه المظاهر كلها ألا ترى فيه ترقيا مطردا ، وتكملا متواصلا ؟ أرأيت زهرة شذية فسألت نفسك كيف تكونت من هـذه الارض الميتة ، وكيف تألفت ألوانها المعجبة ؛ وتركب عرفها الفياح ، ولطفت حتى لايحس بها ؟ أرأيت الماء الذى تشرب منه شبما زلالا ؟ مم نشأ وكيف لاينضب . أنا أحدثك عنه : تبخر حرارة الصيف بعض مياه البحار ورطوبات الارض فتصعد تلك الابخرة الى الطبقات العليا من الجو ماء خالصا من جميع مالابسه من الاقذاء ، فتتألف منها سحب لاترى فى فصل القيظ ، ولكن متى جاء الشتاء تكاثفت ورؤيت على حالة غيوم ، ورحلت الى حيث الجبال الشم ، وتراكم هنالك بعضها على بعض ، فتى ازداد الجو برداً هطلت ، لا أقول كافواه القرب ، ولكن كالسيول الزاعبة . فما يسقط على الجبال يتحول بالبرودة الى ثلج ، وما ينزل الى الارض يجرى على ظهرها رهواً حيث شاء . فاذا انقضى عهد المطر كان على رأس كل جبل جبل مثله من ثلج ؛ فاذا اشتدت عليه الحرارة ذاب منه جزء ونزل على سفحه فيملأ بحيرات هنالك ، فتفيض وتسوق الماء الى النهر المتصل بها . فيجرى عبابا متلاطما فتقول الامم التى تنتفع به ريا وزرعا قد فاض النهر ... ثم يقف عن الفيضان ولكن لاينقطع ماؤه ؛ لان تلك الثلوج المتراكمة على الجبال لاتفتأ تذوب تحت حرارة الشمس يسيرا يسيرا لتمد الاحياء دائما بالماء ، وان كانوا لا

يفكرون فى ذلك طرفة عين .

وهل حانت منك لفتة للطيور فى أوكارها، فرأيت كيف يتعاون الذكر والانثى على بنائها ، وايتائها بكل ما يجعلها صالحة لايواء بيضهما ، وكيف يتبادلان احتضانها ويعملان على فقسها ، ثم كيف يترافدان على تربية صغارهما وتهيئتها للحياة على مثالهما ؟

وهل راقبت الحشرات فى ضعفها وسذاجة تركيبها، ورأيت كيف تهتدى الى ما يصلحها ويحفظ أنواعها ، وكيف تقوم من ذلك على أساليب ووسائل تعجز أقوى العقول عن تدبيرها ؟

وهل شاهدت أنواعا أخرى من الحيوانات فرأيت كيف تقوم على أصول وقوانين ومحاولات تصون بها ذواتها وتحفظ أنواعها؟

كل هذه النظرات التى تجعلك تفاجىء الحياة وهى تعمل، تريك رأى العين انها تستخدم المادة لاغراضها وتهيئها لانتاج الصور التى يعجز الفكر عن استيعابها.

فان كان لابد من ادراك أى الوجودين أصل للآخر، الوجود المادى المحسوس أم الروحانى المحجوب ، هجم بك النظر المجرد على أن الحياة هى أصل المادة ، لا أن المادة أصل للحياة . وهذا هو الرأي الذى انتهى اليه علماء البيولوجيا قال العلامه الكبير (توماس هكسلى) أحد اعضاء المجمع العلمى الانجليزى فى كتابه (المدخل على على ترتيب الحيوانات).

« فى كل المملكة الحيوانية لايوجد مجموع فوق هذا المجموع فى تأييد هذا المذهب القوي الذي أومأ اليه (جون هنتر) أكثر من

مرة وهو «أن الحياة هى علة الاجسام لا انها نتيجه لها » ، لأنه فى هذه الصور الدنيئة للحياة الحيوانية (يريد جماعة الاميب من الحيوانات الساذجة) لا يصادف الباحث مهماتوسل بالآلات الدقيقة التى نمالكها اليوم أى أثر للتركب الجثمانى فيها . فان هذه الاحياء لاشكل لها ومجردة من الاعضاء ومن الاجزاء المحدودة ، ومع ذلك فهى تملك الخصائص والمميزات الاصلية للحياة، حتى انها لتستطيع أن تبتنى لنفسها قواقع ذات تراكيب معقدة أحياناوعلى غاية مايمكن من الجمال» انتهى

هل هذا الترتيب المحكم ، والتكوين المنظم،والاسباب الموجدة للكائنات، والعلل الحافظة لها، والعوامل الدافعة لترقيتها،والنواميس العاملة لتكميلها ، هل كل هذه المجموعة الضخمة من الاسباب والعلل والنواميس والعوامل، فى كون يغلى بالاحياء ،ويفيض بالكائنات ، قائمة على مجرد الخبط والاتفاق ،ومحرومة من روح يدبرها ويهيمن على أطوارها ؟

تستنيم بعض العقول الى كلمة (الطبيعة) فيجدون فيها اسكانا لارواحهم بل خدرا لعقولهم ، ولو تأملوا لعلموا أن الطبيعة كلمة تطلق على المجموعة التى نعنيها من الاسباب والعلل والنواميس والعوامل، فان راق لبعضهم أن يحتفظ بهذا اللفظ قلنا هل الطبيعة تستطيع أن تعمل بغير روح،وأن تفعل مجردة عن الحياة؟ لا،فلابد من أن يكون للوجود حياة عامة وراء ظواهره المختلفة ، كما للجسم الانسانى حياة خلف ظواهره المعيشية ،فان ثلج صدر قارئنا على تنوير هاتين الحياتين،ساغ لنا أن

نقول أنهما مترابطتان لأن أحداهما مشتقة من الاخرى ، فالحياة الانسانية قبسة من الحياة الوجودية ، كما أن الجسد قطعة من مادته الارضية ، فالشعور بهذا الترابط بين الروحين ، والحنين الى زيادة توثيق عراهما، وتعريض صغراهما للاستمداد من كبراهما ، هو أصل الدين وينبوعه فى النفس البشرية.

فالدين بهذا الاعتبار شعور بالارتباط الطبيعى بين الانسان وروح الكون.

واذا كان الدين هو هذه العلاقة الطبيعية بين الانسان وروح الكون ، فى مستوى الشعور بالعلاقة الموجودة بين مادته ومادة الكون ، فلا يستطيع مهما بذل من الجهود أن يتخلص من الشعور بهذه العلاقة . ولا أن يعفى نفسه من العمل لها . فاذا قلنا أن الانسان لا يمكنه أن يعيش بلا دين فلا نكون مغالين ، بل نكون مماشين لطبيعة الاشياء . فاذا كان قد أصاب الدين فتور فى بعض الاحيان فذلك فى مظاهره الخارجية لا فى جوهره وحقيقته ، ولا فى شعور النفس بالحاجة اليه .

وقد قال بهذا القول غطاريف الفلسفة العصرية التى نشأت فى ربوع المدنية المادية. فهذا الفيلسوف الكبير (اجوست سباتييه) يقول فى كتابه فلسفة الدين:

«لماذا أنا متدين ؟ انى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة الا وأرانى مسوقا للاجابة عليه بهذا الجواب وهو : أنا متدين لانى لا أستطيع غير ذلك ، فالتدين لازم معنوى من لوازم ذاتى . يقولون ذلك

اثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج . فاقول لهم لقد اعترضت على نفسى كثيرا بهذا الاعتراض نفسه ، ولكنى وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها، وأن ضرورة التدين أشاهدها بأكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية ، فهى ليست أقل تشبثا منى باهداب الدين .

الى أن قال : «واذن فالدين باق وغير قابل للزوال، وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمن نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعا وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة» . انتهى

وقال الفيلسوف الكبير (ارنست رينان) فى كتابه (تاريخ الاديان) « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه ، وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقليه والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين أو يتلاشى ؛ بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الانسانى فى المضائق الدنيئة للحياة الارضية ».انتهى

بحث فى الوحى

اشد ما ترتطم به عقـول المعاصرين من الشبهات العلمية، مسألة الوحى، فيستبعدون ان الله قـد أوحى الى رجال منهم ليحملوا الى الناس من التعاليم مايقيمهم على الصراط السوى فى حياتهم الدنياء وما يفيدهم من العبادات فى حياتهم الاخرى . فلا بد لنا من وقف المقدمة الثانية من بحثنا هذا على هذه المسألة الخطيرة.

ان روح الوجود الذى صور الكائنات كلها على أى أساليب الايجاد شاء، سواء أخلق كلا منها خاقا مستقلا ام اشتق بعضها من بعض على قاعدة التحول التدريجى ، لم يقطع امداده لها طرفة عين. وكيف يعقل غير ذلك وهى مستمدة وجودها منه، وسابحة فيه سبح النينان فى المحيط الزاخر، منه وجدت وبه تحيا وفيه تفنى ؟

ومما يجب لفت النظر اليه أن تدبير روح الوجود للكائنات وشدة اتصاله بها، أظهر ما تكون فى الكائنات الدنيا من الاحياء ، ثم يأخذ اتصاله بها فى الخفاء حتى يصل الامر الى الانسان ، فيخيل اليه أنه مستقل عنه ولا يعتقد باتصاله به الا باعمال الفكرة وانعام الروية .

خذفى يدك بزرة تفاحة وتأملها، تجدها تكاد لا تفترق عن الحصاة الميتة . فان قيل لك، ولم تكن رأيت ذلك من قبل ،ان هذه البزرة توضع فى الارض فتنبت، ويأخذ هذا النبات فى النمو حتى يصير شجرة، ثم تزهر فتنفرج زهوره عن ثمر التفاح اليانع فى مذاقه الشهى واريجه الشذى ، ولونه الوردى ، وملمسه الحريرى ، لكذبت محدثك واتهمته بالازراء بك. والسخرية من عقلك ، ذلك لانك لا تعقل أن هذه البزرة الغافلة عن وجودها تنفرج متى غرست فى الارض وسقيت بالماء عن جذير وسويق. الاول يغوص فى الطين يتطلب مواده الذائبة وأملاحه المقومة ؛ ولا يرتفع الى سطحه والثانى يرتفع الى سطحه متطلبا الهواء والنور، ومهما حاولت أن تغير وضع هذين العضوين فلا تستطيع ذلك مهما جهدت فيه. أليس هذا

الامر وحده الذى ليس له علة معقولة يدلك على فعل الروح العام فيه، والى دفعه لكل من هذين العضوين الى موضعيهما اللذين لابد من وجودهما فيهما الاداء وظيفتيهما فى الانبات ؟

أليس هذا الامر وحده يدل على هداية الحياة العامة لهذا النبات الضعيف وعلى دفعها لكل عضو فيه الى موضعه؟

ثم اذا تأملت كيف يهتدى ذلك الجذير وهو مغروس فى عيلم من المواد المختلفة التى لاتحصى كثرة، لانتخاب العناصر التى تتألف منها شجرة التفاح، وتنتج زدرتها وتثمر ثمرتهـا، وتؤاتيها بعرفها المعروف ومذاقها المعهود، لو تأملت فى هذا وفى جميع شؤون المملكة النباتية، فاجأت الروح العام وهو يهدى هذه الكائنات الضعيفة الى مايصلحها ويفعل فى تكوينها فعلا مباشرا لايخفى عنه الا من ليس له بصر.

ثم دع المملكة النباتية وارتق الى المملكة الحيوانية، وانظر الى تلك الكائنات الساذجة المكونة من خلية واحدة وهى ابسط ما يمكن تصوره منها، تجدها ممتعة بالعلم الذى يحفظ وجودها ويصون نوعها، وبالمحاولات التى لاغنى لها عنها فى الدفاع عن أنفسها وفى الاحتيال للخلاص من ورطاتها.

فمن أين أتى لهذه الكائنات هذا العلم وهى محرومة من الاعصاب ومن المخ معا ؟ أليس هذا العلم لديها ناشئا من روح الوجود نفسه ؟

من الذي أدرى البعوضة انها يجب أن تبيض على سطح الماء الراكد، وانها مضطرة لوضع بويضاتها فى قوارب صغيرة تعوم على سطحه، ومن

الذى وضع فى جثمانها أجربة تحتوى على مادة تجف بمجرد ملامسة الهواء تصلح لعمل تلك القوارب ، ومن أشعرها بأن تلك المادة تنفرز بالضغط عليها ، ومن لقنها صناعة تلك القوارب واضطرها لوضع بويضاتها فيها ؛ وهى لاتعيش حتى ترى ذريتها خارجة منها، ولم تر هى أماتها تفعل ذلك قبلها ؟ وقس على البعوض جميع أنواع الحشرات والهوام مما لاتحصى أنواعها كثرة، وكلها تلهم الهاماء وتعيش على أعجب مايتخيله المتخيلون من التصرفات المدهشة .

هذه ليست أمورا غريبة فحسب؛ ولكنها محيرة للعقل أيضاً ومجبرة له على الاعتقاد بأن عالم الحيوانات على اختلاف أنواعه ، وتباين وسائل حياته . وتعدد محاولاته. يحيا تحت عناية الروح العامة تمده بالالهامات الضرورية لحفظ ذاته ونوعه. بحيث لو تركته طرفة عين لهلك

أترى أن هـذه الحيوانات كانت تستطيع أن تبقى فى معمعان هذه الهيجاء الحامية، التى تشنها الطبيعة عليها بعواملها المختلفة، لولا هداية الروح العامة لها وعملها المباشر على صيانتها من معاطبها، وارشادها الي وجوه نجاتها ؟

لقد وصلنا الي الانسان؛ فهل يتلقى مدداً من الروح العام على نحو مايتلقاه النبات والحيوان ؟ أما المدد الجثمانى فلا يمكن التشكك فيه . فانك تبصر ولاتدرى مايحدث فى بلورية عينيك من التحدب والانبساط على حسب ابعاد المرئيات ، ولابحدقتيهما من الضيق والاتساع على قدر كثرة النور وقلته ؛ وتأكل وتهضم وانت غافل عما يحدث فى أحشائك من التحليل والتركيب ، والتصفية والتصعيد

حتى ليخرج من الخبز والخضر والفاكهة التى تتعاطاها عضل ودم وعظم وشعر وأوتار وغضاريف وأعصاب، فمن الذى يدبر كل هذه الاجهزة الدقيقة وأكثر أهل الارض لايعلمون من أمرها شيئا، ومن الذى يهديها الي وظائفها ويقودها الي مايقومها ويصلحها ؟

هذا حال الجثمان فهل يتلقى الروح الانسانى مددا عقليا من الروح العام؟

لقد أريتك كيف أن الحيوانات تلهم ماتعمله الهاما، وتقصر عن أن تنتجه بعقولها انتاجا، فشريعتها مبثوثة فى جميع آحادها على السواء، فليس فيها علماء وجهلاء وأوساط، ولكن كل فرد منها يلهم ما يصلحه الهاماً، فيكرر العمل الذى كان يعمله نوعه منذ وجد على الارض، فلما وجد الانسان وكان قريباً من الحيوان فى سذاجته وتجرده من الاوليات الضرورية لوجوده، تولاه الوحى لامن طريق الالهام والسوق؛ ولكن من الطريق التعليمى، مادام قد استأهل هذه المرتبة، فيولد الانسان مجردا من كل علم وكل حيلة: فيهديه أبواه وقبيله الي وجوه العمل: فأصبح للوحى سبيل خاص بالانسان مناسب لكرامته، وهو أن يفضى الروح العام بما يجب أن يعلمه الكافة ويعملوا به الي واحد منهم. فيقوم بنشره بين معاشريه من نوعه.

هذا هو الذى حدث فعلا: فان الانسان قد اعترف منذ أقدم أيامه بما تركه من الآثار، ومانقشه على الاحجار: بأن آحاداً منه كانوا يتلقون الوحى فى أحوال خاصة من حياتهم. فينشرونه فى قبيلهم تحت اسم ملة أو ديانة، فيتلقاه الناس بالقبول أو يرفضونه ،ايثاراً لوحى أقدم منه.

فاذا كان هذا الاعتراف من الامم منذ القدم لا يكفى فى اقناع الآخذين بالفلسفة الحسية ، بحجة أن أولئك الاقوام الاقدمين فى جهالتهم وعمايتهم لا يصح أن يوثق بأقوالهم فيما يسمونه وحياً، ولكن قد يكون ذلك مذهبا لرجل رشيد منهم لقنهم اياه تحت هذا العنوان ليعملوا به مجبرين لا مخيرين .

قلنا قد يكون ذلك، ولكن الواقع أن الانسان وهو يجتاز دور الحيوانية (عفواً فانى أخاطب أهل الفلسفة الحسية)، لا يعقل أن يكون قد قطع فجأة عن حالة الالهام الحيوانى الذى تولى أمر أسلافه طوال عهدهم بالوجود، ولكن الذى يعقل ويساير الطبيعة أن يكون قد انتقل من ذلك الدور تدريجياً، حتى لا تعمى عليه وجوه الحياة فيبيد ، ولم يمهد فى حوادث الوجود الخبط والجزاف كما هو معلوم، وعند تمام تميزه عن العالم الحيوانى كانت روحه بحكم هذا التدرج نفسه قد تطورت تطوراً ذريعاً، فأصبحت قابلة للاتصال بالروح العام من طريق روحانى محض.

يقول قائل : مامعنى اتصالها بالروح العام من طريق روحانى ؟ أليس هذا من قبيل تشبيه الماء بعد الجهد بالماء؟

نعم هو كذلك لدى من اكتفى من العلم بما تلقاه فى الكتب المدرسية المحدودة : ولكن العالم منذ سنة (١٧٧٠) أى من عهد أن أعلن الدكتور الالمانى (مسمر) بأنه اكتشف سيالا حيويا فى الانسان اسماه المغناطيس الحيوانى ؛ وهو جاهد فى تحقيق وجود هذا السيال ومعرفة خصائصه بواسطة التنويم الصناعي، وقد ثبت أخيراً وصار

فى عـداد المعارف الاولية لدى الباحثين بأن فى باطن كل منا عقلا مستقلا غير عقلنا العادى أرفع وأوسع مجالا منه ، هو الذى يوحى الي الانسان الميول الطيبة ، وينهاه عن المنكر والبغى . وهذا العقل الباطن هو الذى يدبر جثمانه،ويدير أجهزته وأعضاءه ، ويصلحها ان اعتراها عطب .

هذا العقل الباطن الذى لايحس الانسان بوجوده ، متصل بالحياة الروحانية العامة اتصالا مباشراً ، فهو يتلقى عنها ما يناسب درجته من المعارف ، ويحاول أن يعكسه على صاحبه من طريق الالهام . فهل يعقل أن لا يكون هذا العقل الباطن قد وصل فى بعض الناس الى درجة رفيعة بحيث يستخدمه الروح العام لايصال شريعة جديدة الي شعب هو فى حاجة اليها ؟

كيف يعقل خلاف هذا وهو الذى حدث فعلا فى كل أمة : وفى جميع أدوار التاريخ : فـلم تخل الارض قط من داع الي الحق والي الفضائل ، مدعياً انه أرسل لاداء هذه المهمة ارسالا ، فتراه يعرض نفسه للهلـكة فى سبيل تعميم دعوته ، ويصبر على البأساء والضراء متبعاً سمت الصالحين من الزهد فى الدنيا والتواضع وإيثار الفقر حتى ينجح فيما تصدى له أو يقتل فى سبيله .

إذا وجد من القارئين من ينكر العقل الباطن ويتشكك فى اتصاله بالعالم الروحانى مباشرة ، ومن لا يقول بأن للانسان حياتين حياة عادية هى ماهو عليـه فى حالته المعهودة ، وحياة روحانية يجليها التنويم المغناطيسى بما لا يدع للانسان شبهة ، ولا يعترف بأن الانسان فى حياته

الروحانية يعيش فى عالم علوى يذخر بالحقائق الالهية ، والمعارف السماوية ، فينال منها على قدر استعداده ، ويؤديه لعقله العادى ، محاولا اعداده للترقى والتكمل ، قلنا اذا كان فى القارئين من ينكر هذا كله فليس لنا من وسيلة لاقناعه الا بلفتته للتوسع فى قراءة ما كتبه العلماء الباحثون فى مسألة التنويم المغناطيسى ، والعقل الباطن على الاسلوب العلمى الصارم .

فاذا كان من الناس من يتجرأون على التكذيب بهذه الحقائق ، مع اعفاء أنفسهم من الاطلاع على ما كتب فيها ، فهؤلاء أمة وحدهم ، وليس يضير الحقائق أن يجافيها عدد محصور من الجامدين .

ماذا يتطلبه الناس من الدين ؟

الناس من ناحية الثقافة العقلية ينقسمون الي ثلاثة أقسام : علماء منتهون ، وأوساط متعلمون ، وعامة مقلدون ، وبين هذه التقاسيم العامة درجات تكاد لا تحصى ترجع كلها الي عقلية رئيسية مع خلاف لا يعتد به فى مثل هذه البحوث . وكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث تتطلب من الدين ما يناسبها من الغذاء الروحانى ، فما يكفى الطبقة الدنيا لا يكفى ما فوقها ، وما يقنع هذه لا يقنع الطبقة العليا من المنتهين ، ولا مناص لنا ونحن نبحث فى الدين العام الخالد ، أن نلم بكل ما تتطلبه هذه الطبقات الثلاث لنرى هل هنالك من دين يوفى بحاجاتها كلها ، فيكون هو الدين العام الخالد ، أم لا : تحتاج الانسانية الي شيء جديد ؟

لا يتطلب العلماء المنتهون أن يأخذوا عن الدين آدابا وأخلاقا ، ولا أن يتعلموا منه أسلوبا فى الحياة ولا دستوراً فى المعاملات يتفق

وأصول العدل والاخاء والمساواة ، فانهم وضعة المذاهب ، وبـ
الاساليب ، وصاغة الاصول ، وانما هم يتطلبون من الدين أن يصلهم
بروح الوجود ايصالا مباشراً يستمدون منه حياة لارواحهم ، ونوراً
لعقولهم ، وسكنا لنفوسهم ، ومطمأناً لوجدانهم .

يشغل هؤلاء العلماء المنتهين شاغل ضخم أذهلهم عن كل ماسواه ،
وهو هــذا الوجود العظيم ، ومايعمل فيه من القوى ، ومايتخلله من
المساتير ، ومايتراءى فيه من الآيات ، ومايحيط به من العلل الاولية ،
والعوامل الخفية ، وماوراء ذلك كله من الروح المدبر والاصل الاصيل .

ان هؤلاء العلماء قد قتلوا المذاهب خبراً ، فازدادوا فى بحوثهم
حيرة ، فكلما ارتفع أمامهم حجاب انفرج عن مجهول أهول مما سبقه ،
وكلما فتحت أمامهم باحة تراءت لهم منها غاية قصية لامناص لهم من
الوصول اليها ، قبل أن يطمعوا فيما بعدها ، وهم مع هــذا تحيط بهم
مسائل لايتخيلون لها حلا ، وتقوم فى وجوههم حوائل لايستطيعون
لها نقبا ، وتساورهم معاضل لاتــترك لهم بسواها شغلا . فاذا ألقوا
نظرة الي أنفسهم والي الوسائل التي يتوسلون بها لــكشف هذه السدف
عن عقولهم ، تكشفت لهم عن ضعف يدفع الي القنوط من الوصول ،
وقصور لايدع لهم مطمعاً فى أقل محصول !

فاذا أعلن أمثال هؤلاء بانهم فى حاجة الي التدين ، فانهم يعنون
من ذلك أن يلقوا بانفسهم بين يدى قيوم السموات والارض يتنسمون
من ناحيته نفحة تــكون ، وهم فى وطيس هذا البحث ، سكنا لارواحهم ،
وملاذا لشعورهم ، حتي لاتحترق رؤوسهم لوعة ، وتتمزق صدورهم حيرة .

فالتدين لدى هؤلاء صعود بالروح الي قيومها، واتصال به فى عالمها ، واستمداد منه فى تلهفها . فان ازدادوا فى لياذهم بها حيرة كانت حيرة المحب الواله يتحرى سبل الوصال، لاحيرة الوامق اليائس استدت فى وجهه أبواب الآمال.

هؤلاء المفكرون الكبار لايثنيهم عن دين أن يكون فيه مايحتاج لتأويل ، أو يستعصى على التعليل ، فهم يعزون كل ذلك الي عوامل توجبها البيئة القاهرة. وتستدعيها عقاية الشعوب المتأخرة، ولا تتجرد من مثلها المثل العليا حتي فى الطبيعة نفسها، على انها الاصل الاصيل للكائنات المادية ، لايثنيهم عن دين كل هذا اذا كانت روحه تصلح أن تؤثر فى أرواحهم ، وأسلوبه يتآخى وأسلوبهم، وكانت سبيله تخلو من العواثير، وغايته أبعد من أن تنال بالتخيل والتفكير، فهم قد ألفوا المجاهيل حتي كرهوا أن يتخيلوا لها حلا، وأنسوا ببعد الغايات حتي أنفوا أن يتوهموا لها حدا، لانهم يرون أن هذه العظمة المحيطة بهم لايصح أن تنكشف مساتيرها لعقل أرضى مهما بلغ من القوة، ولا أن يحيط بحقيقتها نظر مادى مهما نفذ فى سرائر الامور .

ولا بد لي من التنبيه هنا الي أن هؤلاء العلماء الاعلام يرون أن لاحاجة بهم الي الاديان المعروفة، فهم يعتمدون فى تدينهم على ماغرس فى الفطرة الانسانية من الدين الحق . وقد حمل بعضهم اليأس من الاديان الموجودة على وضع دين دعوه الدين الطبيعى، فصلنا أصوله فى كتابنا المدنية والاسلام

أما الاوساط من طائفة المتعلمين ومن فى مستواهم من المفكرين

فيتطلبون من الدين أن يكون واضح الحجة، ناهض الحجة، يماشى العقل فى غاياته ومراميه، ويساير الطبيعة فى أوامره ونواهيه، لا يضع للرقي حداً، ولا يسد على العقول مجالا، ولا يحرم ماتشعر النفس بضرورته من المباحات، ولا يضيق مما اتسع من المحاولات، وأن يكون مرنا يسع مايجد من الآراء العلمية، ولا يستعصى على مايثبت أو يرجح من المذاهب الفلسفية، ومايقوم الدليل عليه من الشؤون الكونية.

فهم يرجون من الدين أن يقتصر على ارشادهم الى طريق الاخلاق والآداب والفضائل والكمالات دون أن يحاول تحديدها، تاركا للعقول حرية التطور فى الشعور بها، وبلوغ الغاية التي تنتظر منها .

فاذا كان لابد للدين من شريعة، تطلبوها شريعة عامة تنص على الحقوق الطبيعية، وعلى وجوب تحرى العدالة، وعلى اقامة الاحكام على أرسخ الاصول وأحكم القواعد، دون أن تضع للنزعة التشريعية فى الانسان حدوداً لايمكن تعديها، وللحوادث والوقائع أحكاما لا يصح أن يعدل عنها الى غيرها، مما يثبت انه أدنى الى العدل مما وضعه القدماء لها .

فهم يريدون أن تكون شريعة الدين أصولا أولية ومبادىء رئيسية، تصح أن تكون دستوراً للمشترعين، لا أن تكون شريعته تفصيلية ان انطبقت فى عهد من العهود على الحوادث شذت عنها فى فى عهد آخر ، وباينتها فى أكثر اجراآتها، وفى الذرائع التى يتذرع بها للوصول الي تجلية الحقائق .

فهذه الطبقة بما تسرب الي كثير من آحادها من الشبهات الفلسفية

وبما تشبعوا به بحكم تربيتهم المدرسية أو المخالطات الاجتماعية من الاصول العلمية، وبما أثر فى نفوسهم مما تكتبه المجلات الالحادية من الاستهانة بالدين. تنشأ بهم حاجة قوية الي الدليل المحسوس، والي الحجة القوية، فيتطلبون أن يجدوها فى الدين نفسه، لا فى القائمين عليه من حفظته، فهم على ضحفهم أشد على الدين من العلماء المنتهين، فلا يغفرون منه مايغفره أولئك، ولا يتسامحون فيما يتسامح به كبار العقول. لذلك يكثر الملاحدون فى هذه الطبقة. ويجمد بعضهم فى الالحاد الي حد الاستعصاء، وبالنظر لعدم شعورهم بهول ذلك المجهول الضخم، الذى يشغل العقول القوية ويصرفها عن كل أمر غيره، تراهم يذهبون فى الحادهم الي حد الاستخفاف والسخرية من المعتقدين بشىء فوق الطبيعة المادية. فان عرض ذكر كبار العقول، وعرض عليهم ماقالوه فى الدين المطلق، هزئوا بهم وقالوا إن العلماء المنتهين لطهارة نفوسهم، وسلامة صدورهم، يقبلون الانخداع ولا يوثق بعقولهم فى غير بحوثهم التي مرنوا عليها من عمرهم سنين.

هذه الطائفة ان شعرت بالحاجة الي دين صحيح، تخيلته لبناسائغا خالبا من كل مايحتاج لتأويل، أو يستعصى على الدليل، الدليل الذى يرتضونه هم لا مايرتضيه أساتذهم العارفون.

ولما كانت هذه الطائفة هى سواد المتعلمين والقابضين على أزمة الاعمال، كان موقف الدين حيالهم وبخاصة فى هذا العهد، عهد الشكوك والمجادلات من أخشن المواقف. وكثيرا ماهاجمه أفراد من فطاحل كتابهم على طريقة الدس، فقوضوا دعائمه فى نفوس كثير من طلاب

العلم، فأخرجوهم الى باحات الاباحة الحيوانية ، لان آحاد هذه الطبقة لايصادفون فى أنفسهم الشكائم التى تردعهم عن الغى، فيخوضون فى حمأة الرذائل ويكونون مثالا لغيرهم فى التحالل من جميع التبعات الادبية.

أما الطبقة الثالثة — وهم العامة فهم مقلدون فى دينهم ودنياهم ، وانما ينحصر تحديهم فى أهل الطبقة الثانية فيتاقون عنهم فى صمت جميع مايفعلون ومايقولون، ثم يصبونه فى قوالب أميتهم ، فيصبح ان كان ماتلقفوه شراً. رجساعلى رجس . فهؤلاء فى الواقع مجنى عليهم يستحقون الرحمة من الوعاظ والمرشدين.

هذه حال الطبقات الثلاث المكونة للجماعات البشرية فى هذا العصر حيال الديانات . ومايتطلبونه من دين. فلم يبق علينا إلا النظر فى هل الاسلام يوفى بجميع هذه الحاجات العقلية والنفسية فيكون هو الدين العام الخالد ؟

شأن الاسلام مع العلماء المنتهين

فصلنا فى مقالنا السابق مايتطلبه العلماء المنتهون من دين وتساءلنا هل يوفى الاسلام بمطالبهم هذه فيكون هو الدين العام الخالد ؟ واليوم نقول نعم واليك البيان :

قلنا أن العلماء المنتهين لايهمهم من دين إلا أن يصعد بارواحهم الى قيومها، لتتصل به فى علياء وتستمد منه القوى فى عروجها ، أما ماعدا هذا من الآراب فلايعنيهم أمره، لاستغراق عقولهم فى فى ذلك المجهول الضخم الذى يحيط بهم . والاسلام من هذه الناحية أصلح مايكون سكناً لارواحهم ومتنفسا لعقولهم وموجهاً لميولهم،

فهو ان شاءوا هجم بهم على معقل اليقين فنقلهم من عالم الروح الى درجات لم يحلموا بها، وان شاءوا جال بهم من عالم الشهادة فى مناح تزيدهم اكباراً لهذا المجهول الضخم، وتضاعف من همهم لكشف الحجاب عنه والوصول الى سر لبابه.

أول مايفاجئهم من هذا الدين قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة لله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون » . فاذا قرأوا هذا غشيهم من احترامه ماغشيهم، وخالط هذا الاحترام قدر كبير من التعجب والدهش . فان ديناً مضى عليه نحو أربعمائة وألف سنة ينص كتابه على أن الدين فطرة فى النفس، وأن هذه الفطرة نفسها هى الدين الحق، لهو أمر يقضى باشد درجات الحيرة. ويدعو الى تفكير كبير فى حقيقة مصدره . فان مثل هذا القول البعيد الغور لم ينأت لكبار الفلاسفة الاقدمين، ولايمكن أن يدرك خطورته البشر إلا فى هذه القرون الاخيرة، ومؤداه أن النفس مفطورة على التدين. وأن الاسلام هو نفس تلك الفطرة . فالاسلام ليس بتقاليد وموروثات وآراء وشروح، ولكنه تلك الفطرة مجردة من كل شوب . وهى تؤدى الانسان بقواها الذاتيه الى أقوم الطرق وأعدل المذاهب . وتكون هذه الطرق والمذاهب عرضة لاتطور على نسبة مايدخل فيه عقله من التطورات المتعاقبة . فلايعقل والحالة على ماترى أن يوجد مذهب أرسخ من هذا المذهب أساساً . ولاأشد على النقد مراسا. ولا أبعد فى المعقولات غورا . وقد تسمى بالخص صفاته وهو (الاسلام)، ومعناه الاستسلام الى الله متجرداً من كل

ماأنتجه الفكر، وماأثره النظر، وماورثته النفس، وماصورته المخيلة.
ودليلنا على هذا الفهم من الكتاب حال ابراهيم في أول أمره، وقد نشأ في قوم يعبدون الكواكب، كما روى عنه الكتاب الكريم في قوله تعالى: « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي، هذا أكبر، فلما أفلت قال ياقوم اني برىء مما تشركون. اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وماأنا من المشركين »

هذا دين ابراهيم الذي قال فيه الكتاب: « ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم، قال أسلمت لرب العالمين. ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون »

والدليل من السنة على أن الاسلام هو الفطرة مجردة من كل شائبة قوله صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة، وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »، أي أن كل مولود يولد مفطورا على الدين الخالص الذي هو الدين الحق وحده؛ وانما أبواه يلقنانه من التعاليم ماهم عليه منها، وهو ينافي الاسلام جملة وتفصيلا، لانه لا يعتقد بدين غير تلك الفطرة نقية ساذجة حرة مستعدة لقبول كل حسن، ودفع كل قبيح؛ وللمتذهب بكل مايقوم على صحته الدليل، والاستعاضة

عنه بغيره متى لاح لها انه أقوم منه سبيلا .

فهذه الفطرة، فطرة المولود قبل أن يلقن دينا من الاديان، وتعاليما من التعاليم، هو الاسلام الذى جاء القرآن بالدعوة اليه، فهل صادفت فيما بين يديك من المذاهب الفلسفية مذهبا فى الدين أرق من هذا المذهب، وأساسا له أبعد غورا من هذا الاساس ؟

فالاسلام لا يؤخذ بالتلقين، وانما هو الطبيعة نفسها خالصة من جميع المذاهب البشرية، فكل مولود يولد مسلماً بطبيعته، فيتأدى الى خير المذاهب فى مدى حياته بعلمه وعقله وتفكيره، ولا يحتاج لمن يرشده اليه . فهل بعد هذا مرمى لمن يريد أن يذهب فى تحليل الدين الى أبسط عناصره، وهل من فلسفة فى الارض تقوى على دحضه، وقد أخرجه القرآن من دائرة الامور العقلية، وأودعه حظيرة الشؤون الفطرية الطبيعية ؟

فالعالم المنتهى يذهل وتأخذه الحيرة متى رأى أنه أمام مذهب هو نفسه المذهب الذى حصله وقام عليه بعد أن احترق رأسه تفكيراً فيه، وذابت نفسه تعطشاً اليه .

فاذا أراد هذا العالم المنتهى أن ينظر فى أسلوب هذا الدين وفى تطبيق هذا الاصل على مافيه من العقائد والعبادات والمعاملات، رآه قائما على أكمل الوجوه وأحكمها . وأول مايود الوقوف عليه منه مسألة العقيدة بالخالق، وهى المسألة التى تلاعبت بها أهواء أهل الملل، فذهبوا فيها مذاهب شتى، وتحكموا فيها الى مدى بعيد، كأن الخالق مخلوق مثلهم تجرى عليه الاحكام التى تجرى عليهم، أو هو مما يمكن

تناوله بهذا العقل الكليل . فاذا وقف العالم المنتهي على ماهو بصدده رأى ما يكاد يذهب بلبه تعجباً ! رأى أن هذا الدين قد سد على ذويه جميع السبل التي تؤدي الى ذلك الفضول المزري بكرامة العقول ، فوجد القرآن يقول :

« يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون به علما » ويقول : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » . ووجد رسول الاسلام يقول : « ان الله قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الابصار ، وأن الملأ الاعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم » ، أي أن الملأ الاعلى وهم في عالم الروح ليطلبون العلم بالله كما نطلبه نحن ، ونحن في عالم الاجساد ، فتساوينا جميعاً في الجهل به ، وان اختلفنا في وسائل التحصيل هذا الاختلاف الكبير .

هذا نص الكتاب والسنة فلا عجب أن أصبح القول بالعجز عن معرفة الله عقيدة اسلامية ، فقد روى عن أبي بكر انه قال :

« العجز عن درك الادراك إدراك » ، وهو أبلغ من الاشارة الى مجرد العجز ، فقد اعتبر الصديق هذا العجز نفسه علماً وهو قول في منتهى الاصابة وبعد الغور .

ووضع الاصوليون الاسلاميون هذه القاعدة العملية التي تقطع السبيل على كل محاولة فقالوا : « كل ماخطر ببالك فالله بخلاف ذلك »

وروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب انه قال ، كما ورد في مجموعة كتبه وخطبه الموسومة بنهج البلاغة ، وقد سأله بعضهم أن يصف الله حتى كأنه يراه عيانا ، فغضب الامام وقال له في كلام طويل بليغ :

« واعلم أن الراسخين فى العلم الذين أغناهم أعن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الاقرار بجملة ماجهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم عن كنهه رسوخا ، فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين .

هو القادر الذى اذا ارتمت الاوهام لتدرك منقطع قدرته ، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه فى عميقات غيوب ملكوته ، وتولهت القلوب اليه لتجرى فى كيفية صفاته ، وغمضت مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها وهى تجوب مهاوى سدف الغيوب ، متخاصة اليه سبحانه فرجعت اذ جبهت معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولى الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته » . إلى أن قال :

« كذب العادلون بك إذ شبهوك بأصنامهم ، ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم ، وجزأوك تجزئة المجسمات بخواطرهم ، وقدروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح عقولهم . وأشهد أن من ساواك بشىء من خلقك فقد عدل بك ، والعادل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك ، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك ، وانك أنت الله الذى لم تتناه فى العقول فتكون فى مهب فكرها مكيفا ، ولا فى رويات خواطرها فتكون محدوداً مصرفا »

هذا كلام جليل ، فان لم تصح نسبته الى أمير المؤمنين على فهو على أية حال من مولدات المسلمين ، وفيه دلالة على حقيقة مذهبهم فى

هذه المسألة الاولية . فاذا وقف العالم المنتهى على هـذا التفصيل ، وسرح طرفه فى غيره من المقررات الاسلامية ، وأدرك أن هـذا الدين قد بنى كله على أصله الاصيل ، وهو انه هو الفطرة التى تولد عليها كل نفس انسانية ، وأن كل ماجاء فيه من التعاليم فى الكتاب والسنة النبوية قائم على ماتتطلبه هذه الفطرة ، ومايقتضيه تطورها فى الكمال ، وهذه الفطرة كما يشعر به كل حى سلطانها العقل وطريقها العلم ، ودليلها الواقع ، وعدوها كل ماخالف هذه الشرعة . فهل نص الاسلام على كل ذلك نصوصاً لاتقبل التأويل ، وقام صرحه المشمخر عليها فى كل أدواره فى خلال العصور ؟ نعم ، وسنبين ذلك تفصيلا فى فصولنا المتتابعة التى نحدد فيها شأن الاسلام مع أهـل الطبقة الثانية وهم الاوساط ان شاء الله

شأن الاسلام مع الاوساط

قلنا فى مقال سبق أن طائفة الاوساط ومن فى مستواهم من المفكرين أول شىء يتطلبونه من الدين أن يكون واضح المحجة ، ناهض الحجة ، فما هى محجة هذا الدين وماهى حجته التى يعتمد عليها حيال الامم والاجيال البشرية ؟ وهل كان للناس به حاجة ، وهل لاتزال هـذه الحاجة داعية اليـه ؟ أم جاء ليزيد عدد الاديان واحداً ، ويوسع شقة الخلاف بين المتدينين وقد بلغوا منه الحد الذى ليس وراءه مذهب لمستزيد ؟

لقد رأيت فى المقالة السابقة أن الاسلام هو الفطرة التى فطر الله عليها الخلق ، فلا نعود الي ذلك الكلام ولكننا نحيل القارىء اليه ،

ونزيد عليه هنا قولنا :

يعلن الاسلام قبل كل شيء بأنه دين عام أنزل للبشر كافة ، وان الرسول الذى جاء به هو خاتم النبيين ، تم به عهد الوحي الالهى ، وخلى بين الانسان وعقله ، بعد أن بلغ الحد الذى يستطيع معه أن يستقل بهداية نفسه ، فقال تعالي : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون » وقال : « قل ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعاً » وقال : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين »

فبأى شيء أرسل خاتم النبيين ، وأى دين حمله الى الناس كافة يصلح أن يقيمهم على اختلاف بيئاتهم ، وتباين عقولهم ، على الصراط الذى يتأدى بهم الي الغايات البعيدة ، من الترقيات الصورية والمعنوية ؟

يصرح الاسلام بأنه لم يأت الناس بدين جديد ، ولكن أتاهم بالدين الاول الذي أوحاه الله الى المرسلين كافة من أول أبي البشر الثانى نوح ، الى عيسى بن مريم عليهما السلام ، فقال فى نص لايحتمل التأويل ، ولايقبل التحريف : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ماتدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب . وماتفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الي أجل مسمى لقضى بينهم ، وأن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولاتتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل

الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لاحجة بينناوبينكم (أى لاحجاج ولاخصومة) ، الله يجمع بيننا واليه المصير »

هذا كلام صريح فى أن الاسلام هو الدين الذى أوحاه الله الي أول المرسلين بعد آدم ، ومازال يجدد الوحى به لكل رسول حتي خاتم المرسلين ، وقد تولي القرآن نفسه شرح هذا الاجمال،فقال أن الدين الاول هو القيام على الفطرة،وعدم التفرق فى مذاهب التدين . وهذا كلام صريح فى الدعوة الي توحيد الاديان، وحكم بات بأن التفرق فيها، على وحدة أصلها،خروج عليها جميعاً . فان الفطرة الانسانية مادامت واحدة فى صميم كل نفس، فلامعنى للاختلاف فى مقتضياتها،إلا أن يكون ذلك بغياً من القائمين عليها، لتسخير الناس لارادتهم ، وذهاب كل طائفة منهم بفريق من البشر يستغلون جهالته لاشباع مطامعهم . فأمر الله رسوله أن يبرأ الى الله من ذلك، ويصارح به الامم فى مشارق الارض ومغاربها،فقال : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء » وأن يعلن ايمانه بجميع الكتب اجمالا ، وأن لايخاصمهم ولاينابذهم ، بل وأمر أن يعدل فى الحكم فيهم،راجياً أن الله يجمع بينه وبينهم .

وقد طبع الاسلام كله بهذا الطابع الالهى،حتي أن صيغة الايمان التي أمر المسلمون أن يقولوها أصرح مايمكن أن تكون اعلانا له ، واليك نصها من سورة البقرة : «قولوا آمنا بالله،وماأنزل الينا، وماأنزل الي ابراهيم واسماعيل ويعقوب والاسباط وماأوتى موسى وعيسى ،

وماأوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحدمنهم ونحن له مسلمون فان آمنوا بمثل ماآمنتم به فقداهتدوا ، وان تولوافانما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله وهوالسميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، ونحن له عابدون ».

وقال فى موطن آخر من تلك السورة : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير».

وقال فى سورة آل عمران : «أفغير دين الله يبغون، وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرهاً واليه يرجعون . قل آمنا بالله وماأنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ، وماأوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ».

وقال فى هذه السورة نفسها : « ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدماجاءهم العلم بغيابينهم ، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب. فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم ، فان اسلموا فقداهتدوا. وان تولوافانماعليك البلاغ والله بصير بالعباد» .

وقد شدد الله فى وجوب الايمان بجميع الرسل ليقيم مبدأ توحيد الاديان على اقوى اساس، فقال : «إن الذين يكفرون بالله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا ، اولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابامهينا»

كل هـذه نصوص صريحة فى أن الغاية التي قصد اليها الاسلام باعلانه انه ليس بدين جديد، ولـكنه هو الدين الذى أنزل على جميع الانبياء ، هى أن ينشر هذا العلم الصحيح الذى يجهله جميع الآخذين بالاديان من البشر . فالدين بمقتضى مذهبه هذا لايجوز التخالف فيه ، وكيف تتخالف وأساسها الفطرة، وهى واحدة لدى الناس على اختلاف بيئاتهم وأجيالهم؛ وانما جاءهم الخلاف من الاوهام والاهواء التي تناول بهـا قادتهم العقائد بالشرح والتأويل والتحريف فى خلال العصور ، لتتأدى الى تحقيق مطامعهم فى تسخير النفوس واستغلال جهالتها؟

هذا تجديد خطير الشأن فى نظرية الدين، لمحه الاولون فتسارعوا الي الدخول فى الاسلام بغير دعوة ، حتى قدر من دخل فيه فى قرن واحد بمئة مليون نسمة ، ومنهم كثير من قادة الاديان وأولي العلم . ولـكن هذا التجديد العظيم جهله سواد المسلمين منذ أجيال كثيرة فأهملوا التنويه به ، وغبي عنه الاجانب ، فوقف انتشار الاسلام عند حد ، وفقد أهله الروح التي تحرك أهل التجديد الى العمل المتواصل فجمدوا حيث هم ، ولـكن هذا الامر الجلل سيتضح عند ماينضج أهله فى العـلم فيستولى على قلوبهم ؛ ثم يتعداهم الى غيرهم، حتي يعم نوره الارض : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد »

واذا كان الاسلام قـد قرر بأنه هو الدين الفطرى الذى أوحى الي كل رسول ؛ وانه جاء لتوحيد الاديان كلها بردها الي أصلها الاصيل، وان مافرق الناس غير بغى قادتهم طمعا فى المال والسلطان ، فقد حمل

الامة التي تأخذ به تبعة من أكبر التبعات ، وهى أن تكون للناس علما يهتدون بها يها فى كل طور من أطوارهم ، ومناراً يعشون الى نورها اذا ضلوا فى متاهات مذاهبهم ، فقال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »

فكل مسلم بحكم هذه التبعة يجب أن يكون علما من أعلام الهدى ، وسنيراً الي من حوله يلفتهم الى هذه الحقيقة الثابتة ، بهذه الحجة الناهضة . لهذا كله صار الاسلام دينا عاما ، وسيتضح لك مما يلى من البحوث أن كل أوامره ونواهيه ، ومناهجه ومراميه ، بنيت على هذا الاساس بحيث تصلح لجميع الناس على السواء ، وتماشى تطوراتهم المادية والادبية فى كل الاجيال.

فهل يطمع الانسان أن يتمذهب بمذهب أوضح من هذا محجة ، وأقوى حجة ، وأبعد مرمى ، وأصدق مغزى ، وأولي بالانسانية فى تطوراتها المتعاقبة ، وأجدى عليها فى انقلاباتها المتوالية ؟

أى دين فى الارض يقوم على غريزة طبيعية فى النفس ، ثم يعتمد فى بناء صرحه على سلطان العقل ، فيجعل من هذا البناء السامق لا شكلا غير قابل للتحول . ولكن عملا هندسيا دقيق الصنعة يقبل التحويل فى كل جزء من اجزائه لـيطابق الواقع ويماشي الحاجات دون ان يصاب اساسه بوهن ؟

ثم ماذا تنتظر من رسول يقول انه خاتم المرسلين اكثر من ان يقعد لك الدين على اساس طبيعي لا يمكن هدمه . بل ولا وصول المعاول اليه ، وان يجعل العقل دليلك فى كل مايئوانيك به من عقائد وعبادات

ومعاملات ، وأن يجيئك بنظرية فى التدين تعتبر أقصى مايدفع النظر العلمى اليه ؟

أليس الذى يأتيك بكل هذه النهايات جديراً بأن يكون خاتم النبيين ، والكتاب الذى يقدمه لك أهلا بأن يكون خاتمة للوحى الالهى ؟

« واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتأمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون : وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون »

« قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين »

فى الفصول التالية ننظر فى بقية مطالب الطبقة الوسطى التى نحن بسبيلها إن شاء الله

الاسلام يعلن سلطان العقل والعلم

قلنا فى المقال السابق إن الاوساط يتطلبون من الدين أن يكون واضح المحجة ، ناهض الحجة ، وبينا لهم محجة الاسلام وحجته ؛ والآن نأتى على مطلب ثان لهم وهو أن يكون الدين مماشياً للعقل فى غاياته ومراميه ، ومسايراً للطبيعة فى أوامره ونواهيه . فنقول :

إن الانقلاب الكبير الذى أحدثه الاسلام فى أمر الدين أظهر ماتكون عوامله فى هذا الموطن ، موطن المناداة بسلطان العقل ؛ والمجاهرة بسيادة العلم ، فسمع الناس لاول مرة فى تاريخ الاديان كلمات

تفكير ونظر وبرهان وتبعة شخصية وبطلان للتقليد.

كان الناس قد استعدوا بعد طول مقام على الاعتقاد بلا برهان، والتقليد لغير معصوم، للدخول فى دور الرشد، والاستقلال الذاتى عن الاوصياء والقامة، والمتحكمين فى نفسياتهم وعقلياتهم، فأرسل الله محمداً بالاسلام لافتتاح هذا العهد الكريم، والنداء بالدين العام الخالد، الذى أريناك فى الفصل السابق أى شىء هو. فكان أول شىء وجه اليه عنايته تحطيم القواعد التى يقوم عليها التدين فى دور القصر وهى التقليد الاعمى، واهمال النظر الشخصى، واغفال التفكير الحر، ومنابذة العلم، الا ما كان منه موافقاً للدين فى نظرهم، ومؤيداً لسلطان المتحكمين فى إرادات الناس وعقولهم، فأهاب الاسلام بالناس الى اعتبار العقل، وسيادة العلم، ودعا الي النظر والتفكير، وتطلب البرهان، واشتد فى هذه الدعوة الى حد انه لو عد ماجاء فى القرآن من قوله تعالي: (أفلا تعقلون) (لعلهم يتفكرون) (أفلا تذكرون) الخ الخ لتعدت العشرات. ولو أضيفت اليها الآيات التى تطالب الناس بتنبيه قواهم العقلية، ورفض مالا يعززه برهان، وترك كل مالا يؤيده علم، ونبذ التقليد للآباء الخ لبلغت المئات، فان القرآن كله قائم على هذه الاصول ومروج لها، حتى ليتجلى لتاليه انه ازاء انقلاب فكرى خطير الشأن، لاشبيه له فى تاريخ القرون الماضية، بقصد احداث ثورة على كل قديم، الاماوافق العقل والعلم منه.

وكيف كان يتأتى للاسلام أن يسلك غير هذه السبيل فى حل الاديان المعقودة على أسس التقليد الاعمى، والقائمة على قواعد الاتباع

المجرد من النظر، الا بهدم هذه الاسس والقواعد البالية، ونسفها نسفاً، حتى يشكك هذه الاشباح الانسانية فيما تدين به ولا تفكر فيه، وفيما تتعبد له ولا تستأنس له بحجة.

نعم لا سبيل للاسلام الى النفوذ لقلوب الامم غير محق الغلف الفولاذية التى وضعها عليها قادة الاديان، ليحجبوا عنها أنوار العقل، ولكى لا تنبض إلا بإراداتهم، ولا تتحرك إلا تحت املائهم.

أمسك هؤلاء بخنق الانسانية فاستسلمت لهم طائعة أجيالا، لان العقل لم يكن قد نضج للاستقلال بنفسه، فكان من مصلحة هذه الاكداش البشرية أن تقاد بمثل هذه الشكائم الحديدية. فلما بلغ الانسان سن الرشد، نسخت هذه السنة وتولد عهد جديد اقتضت الحكمة الالهية أن تجعل على رأسه محمداً صلى الله عليه وسلم، فقام به خير قيام، وأقعده على أرسخ الوطائد، ثم تركه لرجال جروا على سنته، فانتشر الاسلام فى نحو قرن من الزمان بلا دعوة ولا اكراه. لم ينتشره دين غيره الا فى قرون، وبالحديد والنار. فقد كان غزاة أوربا يفتتحون البلاد ومعهم دعاة الدين ينشرون دعوتهم فى تلك الظروف الرهيبة، ولهذه الدعوة تاريخ أى تاريخ، لا نذكر منه حرفا إلا اذا ما جنا هائج اليه.

فاجأ الاسلام الناس بأصل لم يكونوا يحلمون به، ولا يتوقعون أن يسمعوه فى عهد من عهودهم، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: « الدين هو العقل، ولا دين لمن لا عقل له». وكانت سنة قادة الاديان قبل ذلك فى مشارق الارض ومغاربها كما قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر « اطفىء مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى».

ثم عزز الاسلام هـذا الاصل بأصل ثان ليس بأقل من الاول دعوة الي الثورة في الدين ، وهو النعي على التقاليد والموروثات ، وعلى المقلدين للآباء والاجداد، بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ، فقال تعالي : « واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله،قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم (لايعقلون شيئاً) ولايهتدون » وقال : « واذا قيل لهم تعالوا الى ماأنزل الله والي الرسول، قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم (لايعلمون شيئاً) ولايهتدون »

وليس بخاف أن الجرى على سنة السلف من أخص صفات المتدينين ، وأكثر مادب الفساد الى الاديان كان من هذه الناحية ، حيث تتقوى العقيدة الدينية بالعاطفة القومية،فترسخ في النفوس رسوخ غرائزها الطبيعية . وهذه علة ابقاء الامم، حتي الراقية منها، على عقائد لاتحتمل النظر المجرد فضلا عن النقد ، ولذلك تشدد الاسلام في هدمها الي حد أن هـذا التشدد اتخذه أعداؤه عونا لهم في أبطال دعوته ، واثارة النفوس لكراهته ، ولكنه لم يبال بذلك لان نشر الدين العام الخالد ، والناس في مفتتح عهد الاخوة العالمية ، لايتأتى إلا بالتصفية على هذه الآثار الموروثة، التي تصد الامم عن الوحدة المرجوة.

وهـذا الجهد لايثمر ثمرته المنتظرة إلا بايقاظ العقل ، وتنبيه غريزة التفكير والنظر الحر، والنعي على الآخذين بالظنون والاوهام ، فأكثر الاسلام في هـذه المواطن من الدعوة الي كل ذلك في ألوان شتى لتبلغ مواطن الاقتناع من الصدور ، وتدفع بالانسان الي تلمس المخرج، فقال تعالي : « قـل انظروا ماذا في السموات والارض »

« أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أوآذان يسمعون بها،فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور» ، « هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ، إنما يتذكر أولو الالباب » ، « لايستوى الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور »، « إئتونى بكتاب من قبل هذا أوأثارة من علم ان كنتم صادقين»، « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون »، «هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »

« ان يتبعون الا الظن وماتهوى الانفس ولقدجاءهم من ربهم الهدى » « ان يتبعون الا الظن وأن الظن لايغنى من الحق شيئاً » « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوءعمله واتبعوا أهواءهم »

ثم شفع هذه الآيات الناعية على المعتقدين تقليداً بالتنويه بالتبعة الذاتية،وبأن أحداً لايغنى عن أحد شيئاً ولو كان نبيامرسلا ، أوماكا مقربا ، فقال: «كل أمرىء بما كسب رهين » وقال:«ليس للانسان الا ماسعى وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى » وقال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره،ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وقال : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به » وقال : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين» وقال : « وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا » وقال : « اذ تبرأ الذين اتبعوا (بالبناء للمجهول) من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب . وقال الذين اتبعوا (بالبناء للفاعل) لو ان لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ،

وماهم بخارجين من النار »

هـذه الآيات ومئات من أمثالها تساور السامع من كل مظان الاقناع فلا تزال به تـكافح التحجر التقليدى فيهحتي تـكشف عن الفطرة الانسانية،فتهب تتطلب الفهم وتتحرى الدليل ، ولاتسكن الي الاتباع دون أن تعرف فى أى طريق يجرى بها، والي أية غاية يؤديها.

وقد رفع الله من شأن العلم حتي جعله النور الذى لامحيص لـكل حى عن تطلبه ، وأشاد بذكر العلماء الى حد أن اعتد بشهادتهم فى حقه: فقال تعـالي : « يرفع الله الذين آمنوا منـكم والذين أوتوا العلم درجات » قدرها ابن عباس بسبع مئة درجة . وقال : « شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائـكة وأولو العلم قائمـا بالقسط »

ومن أشد مايدفع بالنفوس لطلب العلم ، ومن أعجب ماأثر من الاشادة بفضله ، قصر الصفات العليا التى يتهالك الناس على الحصول عليها،على أهل العلم دون سواهم، لانه لايبلغهاغـيرهم، فقال تعالي : « انمـا يخشى الله من عباده العلماء » وقال. « وتلك الامثال نضربها للناس ومايعقلها الا العالمون » وقال « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتـكم وألوانـكم ان فى ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام فيهما

أما ماورد عن النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب فلا يكاد يحصيه متتبع ، منه قوله : « مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة »

وقوله : « فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد » والفقه معناه الفهم والعلم، وقوله: «اطلبوا العلم ولو بالصين»

والمراد بالعلم مايرفع الجهل وينمي العقل وينبه ملكات النفس ويكشف الحقائق الوجودية ، ودليانا على ذلك لفت القرآن للناس الي تنور أسرار الكون ، وهو مستقر كل علم ومستودع كل سر كقوله تعالي : « قل انظروا ماذا فى السموات والارض » وقوله : « وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون » وقوله: «ويتفكرون فى خلق السموات والارض ، ربنا ماخلقت هذا باطلا » . والتفكير فى خلقهما يؤدى حتما الي العلم بهما ، وهو مراد القرآن، ودليانا العملى على ذلك أن العرب بعد وفاة النبي بست سنين (كما يقول العلامة درابر)، شرعوا يطلبون العلم، فلم يدعوا فرعا من فروعه الاحذقوه، وصاروا أئمته ، فلو كان الاسلام يريد بالعلم العلوم الدينية لوقفوا عند حدودها كما فعل المسلمون فى العصور المتأخرة.

ومن أغرب مايرويه الراوون فى تاريخ الاسلام، انه لابتنائه على العقل والنظر والعلم والبرهان، قرر الاصوليون أن الايمان التقليدى فى عقائده غير مقبول ، فلا بد لكل معتقد من أن يكون لديه الدليل على كل مايأخذ به بقدر درجته من العلم .

فهذا الاصل فى الاسلام يوجب الدهش والحيرة، اذ لايوجد مايشبهه فى الاديان ولامايقرب منه . ولكن لو علم الباحث فيه انه دين عام خالد لزال دهشه ، فان الامم وقد ضربت فى العلوم بأوفر السهوم، وستنال منها مالايخطر ببال لاتقبل عقيدة الاعلى هذا الاسلوب.

على هذا النحو فتح الاسلام الاعين للنظر ، والعقول للفهم ، والقلوب للشعور ، فنهض قبضة من رجال أسعدهم الحظ بمعاصرة

خاتم المرسلين بنشر هذه النفحة الالهية فى الارض ، فتألبت عليهم الامم حتى الامة التى هم من صميمها ، فارتدت جزيرة العرب كلها عن الاسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وتصايحت الى السلاح ، فأمكن الله هذه الفئة القليلة من هذه الجماعات الغفيرة ، ثم اندفعت الى خارج بلادها تنشر هـذا النور فى بقاع خيم عليها الظلام قروناً ، محاولة أن تخرجها منه الى النور، قال العلامة (سديو) المؤرخ الكبير ومن وزراء فرنسا السابقين فى كتابه تاريخ العرب: « لقد كان المسلمون متفردين بالعلم فى تلك القرون المظلمة فنشروه حيث وطئت أقدامهم وكانوا هم السبب فى خروج أوروبا من الظلمات الى النور» .

فما يطلبه الاوساط من الدين فى هذا الموطن مرجود فى الاسلام على أوسع مايرجون ، وقد بنى الصرح الاسلامى الباذخ كلـه على هذا الاصل الكريم ، كما سنبينه فى مطالبهم الاخرى فى فصول متوالية هنا ان شاء الله.

الاسلام لا يضع للرقى حـدا ، ولا يوصد على العقول مجالا

المطلب الثالث للاوساط من الدين أن لا يضع للرقي حـداً، وأن لا يوصد على العقول مجالا .

أما الاسلام من هـذه الناحية فلا أقول انه يوفى بهذا المطالب فحسب ؛ بل أقول انه يفرض الترقى على الآخذين به فرضاً ، ويدفع بهم الى كل باحات العقول دفعاً . والا فكيف تفسر انتقال العرب بعـد اسلامهم من عداد الامم الجاهلة المسودة ؛ الى مصاف الامم العالمة السائدة ، استغفر الله بل الى صف فوق الصفوف صارت فيه

وحدها حافظة للعلم والحضارة والفنون دون سائر الامم . وقد اعترف الكافة لها بالزعامة فى ذلك قرونا طويلة ، كانوا فيها يؤمون عواصمها يأخذون عنها العلم والحكمة وأسرار الصنائع والفنون . ولا يزال المؤرخون من جميع النحل يرددون هذه الحقيقة . أليس هذا لان الاسلام يفرض الرقى فرضاً ، ولا يكتفى بأن يسمح به سماحاً

أن قول الله تعالى : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا» وقوله : «وقل رب زدنى علماً » وقوله : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقول النبي صلى الله عليه وسلم : «اطلبوا العلم ولو بالصين » وقوله: «خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت » أى ولو خرجت من فم آثم أو كافر ؛ فان الحكمة تلتقط حيث كانت ولا يؤثر على قدسها شيء . كل هذه الآيات والاحاديث فرضت على المسلمين العلم ، ودفعت بهم الي مباحثه دفعاً ، والعلم يؤدى الي الترقى لا محالة ، بل هو طريقه الوحيد فى كل أدوار البشر .

أى علم ؟ العلم على اطلاقه بكل مايحتمله لفظه ومعناه ، وبكل مايؤدى اليه فى الحياة . فان الدين الذى يفرض على ذويه النظر في السموات والارض ، والذى يقول انه يضرب للناس الامثال وما يعقلها الا العالمون (بكسر اللام)، والذى يرفع من شأن أهل العلم بحيث يستشهد بهم فى حقه ، والذى يقول رسوله : « فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد » ويقول : « فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » ، قلنا أن الدين الذى يفعل هذا يدفع بأهله قهراً الي طلب العلم ، وطلبه يهجم بهم على أطوار من الترقى لا تطوف بخيالهم

قبل الدخول فيها . والا فمن ذا الذى كان يتوهم أن العربى الذى كان يتخيل أن القمر له غلاف اسمه الساجور يدخل فيه كل شهر مرة ثم يخرج منه يسيراً يسيرا ، ليعلل بذلك أطواره المختلفة من هلال الي بدر ، يصبح بعد مئة وخمسين سنة يعرف من أحوال هذا الكوكب مايعرفه أكبر الفلكيين اذ ذاك ؟.

ومن الذى كان يتخيل أن ذلك العربى الجاهل يصبح بعد تلك المدة القصيرة وبيده قبس من العلم يعشو الى نوره العالم من جميع أرجاء الارض ، يأخذون عنه ماجعله الله أمينا عليه دون خلقه ، فكان الحافظ لميراث الانسانية العقلى من ناحية ، والواسطة فى احيائه، وتسهيل سبيل الانتفاع به من ناحية أخرى .

من ذا الذى كان يستطيع أن يتخيل هذا لولا أن الاسلام قد أوجب على متبعيه الانقياد لناموس الترقى ايجابا، لا انه قد أباحه لهم تخييراً ؟

هل وضع الاسلام لهذا الترقى حداً ، وهل للترقى فى نظر الاسلام حد يقف عنده ؟

أن الدين الذى يقول لمتبعيه « ويخلق مالا تعلمون » ، يفتح أمامهم باحة اللانهاية، فلا يدع فى أنفسهم حاجة الي السؤال عن الحدود والغايات . لذلك رأيت المسلمين الاولين بعد وفاة نبيهم بست سنين، اندفعوا وراء العلم اندفاعهم وراء الحياة . ولاعجب فان الدين الذى يقصر الصفات العليا للنفس، والغرائز الكامنة فيها، على أهل العلم وحدهم فيقول : « وتلك الامثال نضربها للناس ومايعقلها الا العالمون » يرون فى العلم الحياة كل الحياة.

هل وضع الاسلام لشهوات العقول حداً ، هل أوصد في وجهها مجالا ؟
اللهم لا ، بل أباح لها أن تجول في كل مجال ، وأن تجوس خلال كل مجهول تظن أن وراءه فائدة مادية أو معنوية ، وقد ندب الاسلام المسلمين الي تعلم اللغات الاجنبية ، فنبغ رجاله في اليونانية والفارسية والسريانية والهندية ، وحضهم على تعلم كل علم حتي العلوم المعروفة بأنها باطنية أو ظلمانية ، ان لم يكن للانتفاع بها فلا تقاء الضرر الذى يجيء من قبلها ، كالعلوم الطاسمية (بكسر الطاء وتشديد اللام مفتوحة) والسيمياء واسرار الحروف والتنجيم الخ الخ
ومن من الناس يخطر بباله أن الاسلام يسمح بتعلم السحر ، وهو من أخص العلوم الظلمانية ، وقد أعدم مئات الالوف من المتهمين به في الامم ، والقوا في النار أحياء ، ولا تزال بعض القوانين الاوروبية تعاقب من يشتغل به ولو من ناحية التجارب العلمية ، وادراك العوامل النفسانية الخفية .
لم يحرم الاسلام من هذا كله الا العمل به ، حتي قال المسلمون في أمثالهم « تعلم السحر ولا تعمل به »
هذا تسامح عظيم ، بل مراعاة حقة للطبيعة البشرية ، فان الانسان مدفوع بطبعه لان يرود كل مجهول ، ويتحسس من كل محجوب ، ويرمى بنفسه الي كل مرمى ولو كان وراءه حتفه ، فالدين الفطرى المماشى لطبائع النفوس لا يسمح أن توصد على العقول باحة ، ولا أن يحد لرمايتها حدا . ولو فعل ذلك لكسر الناس كل قفل وضعه ، وتعدوا كل حد رسمه ، وأصبح دينا خياليا يعرف ولا يعمل به ، والاسلام

لا يريد الا أن يكون دين العالمين من ناحية عملية لا خيالية .

ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين لم يكتفوا بالشغل بجميع هذه العلوم الباطنية والظلمانية ، ولكنهم ألفوا فيها كتبا لا تزال موجودة الي الآن ، منها المطبوع ومنها المخطوط ، وكثير منها محفوظ بدار الكتب الملكية ، وفى مكتبات الافراد فى كل البلاد الاسلامية .

ومن أغرب ما نرويه أن العرب اشتغلوا كثيرا بكيمياء الذهب ، ووصلوا منها الى نتائج عملية . اذ ذكر بعضهم انه قد أنجح فيما تصدى له ، وليس لنا أن نكذبهم كما كنا نفعل قبل سنين معدودة ، اذ أعلن فى أوروبا وأمريكا بأن الكيمياء الرسمية قد توصلت الي عمل الذهب .

ومن الغريب أن العرب جعلوا الزئبق أساساً لمحاولاتهم من هذه الناحية . وقد ثبت أخيراً أن الزئبق هذا هو الذهب مخلوطاً باوكسيد الكبريت ، وانه متى سحب هذا الاوكسيد منه بقى الذهب خالصاً من كل شائبة .

وثبت أيضاً كما رواه الاستاذ درابر الامريكى وغيره أن العرب بحثوا فى مذهب التطور ، ودرسوه فى بعض جامعاتهم بأوسع مما يفعل الاوروبيون اليوم . اذ سروا عوامل التطور نفسها على المعدنيات .

ولا يبعد أن يثبت أيضاً انهم قد اكتشفوا أمريكا قبل كريستوف كولومب بقرون كثيرة ، وجمهرة من رجال العلم فى أوروبا يرون أن أسراراً علمية مما كان يعرفه المسلمون لا تزال محجوبة عنهم ؛ فلذلك نجدهم يدأبون على استخراجها للانتفاع بها ان أمكن .

نكتفى اليوم بهذا ونرجىء الى الفصل التالي بعض ما يلى هذا

من مطالب الاوساط من الدين وبالله التوفيق .

الاسلام لايحرم شيأ مماتشعر النفس بضرورته من المباحات، ولا يضيق ما اتسع من المحاولات

المطلب الرابع من مطالب الاوساط من الدين أن لا يحرم شيئاً مما تشعر النفس بضرورته من المباحات ، وأن لايضيق مااتسع من المحاولات ، فلنحاول اليوم بيان مذهب الاسلام فى هذا الباب فنقول :

الاسلام بموجب أصوله ، وتركيب بنائه ، دين علم وحضارة ومايؤديان اليه من فتح واستعمار وتنافس وتنازع وغلب (بفتحتين) ، فمثل هذا الدين ينافى بطبيعته الاستكانة والتماوت اللذين يريان على جماعات المتدينين فى الارض . فلقد كان الرجل فى فجر الاسلام يأتى فيبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الدين ، ثم يبادر فيأخذ مكانه من من الصفوف ، إما مجاهداً لنشر الدعوة ، أومدافعاً يذود الاعداء عن حرم الاسلام . لهذا رأينا عمر بن الخطاب ، ومن هو عمر ؟ يضرب بدرته شاباً رآه بحضرته متخاشعاً منكساً رأسه ، قائلا له « ارفع رأسك فان التقوى فى الصدر »

وكان النبي صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره ، وسمو منصبه ، يسرع فى مشيته كأنه ينحدر من صبب . قال أبو هريرة : « مارأيت شيئا أحسن من رسول الله كأن الشمس تجرى فى وجهه ، ولا رأيت أحداً أسرع فى مشيته منه ، كأنما الارض تطوى له وانا لنجهد أنفسنا وانه لغير مكترث »

وقد نهي النبي صلى الله عليه وسلم فى نص صريح عن الغلو فى الدين

فقال : « لا تغلوا فى دينكم فانما هلك من كان قبلكم بغلوهم فى دينهم » وقال : « الاسلام متين فأوغل فيه برفق، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه »

لا عجب فى هذا كله فمحمد كان مؤسس دولة عهد اليها الحق أن تحدث حدثا لا مثيل له فى تاريخ البشر ، تسقط به دولا وتقيم أخرى ، وتنشر فى الارض أصول الثورة على التقاليد والموروثات ، وتبنى سلطان العقل على أرسخ القواعد ، وتبرر الانقلابات الاجتماعية فتجعلها سببا من أسباب الارتقاء .

لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يكره أن يرى أصحابه منهمكين على العبادة ، غير مراعين حقوق أجسادهم، لان الحدث الجلل الذي أرسل لتحقيقه فى العالم يتطلب أجسادا قوية ، وارادات حديدية ، وكان يحثهم على المحاولات الرياضية كركوب الخيل والسباحة والرماية والمصاصعة بالسيوف.

وقد جاء فى الحديث انه لحق به فى تهجده رجال كانوا يصلون خلفه ، ثم رآهم يكثرون ليلة بعد أخرى، فمنعهم خشية أن يفرض التهجد عليهم فيضعفهم.

وفيه انه قال لعبد الله بن عمرو بن العاص: « ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال نعم يارسول الله وأنى على ذلك لقادر . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا، بل قم ونم وصم وأفطر فان لبدنك عليك حقا، وان لزوجك عليك حقا ، وان لزورك (أى لزائريك) عليك حقا، الخ » وقال : « من صام الدهر فلا صام ولا أفطر » دعاء عليه

وفى سيرة النبى والسلف الصالح من هذا الضرب كثير . ولاأظن مؤسس دين أو قائما عليه فى الارض ينهى أحدا عن الغلو فى هذه المواطن ، بل كثيرا ماشجعوا عليه .

ومن أغرب مافى هذا الباب أن فى الدين عزائم، أى أمورا لاتقبل الهوادة فى الاحوال العادية، ولكنها تقبلها فى السفر والمرض والاعذار المشروعة وتسمى رخصا ، ولكن بعض الناس كانوا يتجاوزون عن هذه الرخص غلوا فى محافظتهم على أوامر الدين ، واعتمادا على قوة بناهم (جمع بنية) ، فنهاهم النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله : « أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » وقال : « من لم يأخذ برخصنا فليس منا »

فهذا غريب من مؤسس دين، ولكن لو تذكرت انه مؤسس الدين العام الخالد، الذى سيكون دين البشرية كلها الى قيام الساعة ، وأن هذا الدين يجب أن يكون عمليا لاخياليا أدركت سر هذا الامر .

إن أكثر الناس، وبخاصة فى هذا العصر المادى، يشعرون بانقباض فى الصدر اذا ذكر الدين أو ذكر أهله ، لانهم اعتادوا أن يسمعوا عنه زهداً فى الحياة ، ونبواً عن مباهجها ، وانصرافا الي مابعد الموت لايدع للنفس متسعا لمتعة مادية. وانهم اعتادوا أن يسمعوا عن رجاله الانقطاع عن الدنيا والاقبال على العبادة وتحريم كل مايلهى النفس ، أو يروح عن القلب . والواقع أن مابلغهم أو رأوه ليس بصورة صحيحة للاسلام ولا لاهله الذين عرفوه حق معرفته واتبعوا أسلوبه فى الحياة.

فمن شاء أن يعرف المثل الاعلي للانسان المسلم فعليه أن يدرس

ماكان عليه رسول الاسلام من أمور الحياة تاركا كل من عداه ، فليس أحد بأجدر منه بمعرفة مراد لله من الدين ، ومايجب أن يكون عليه الانسان بين أهله ومواطنيه . فقد روى الامام الترمذى فى كتاب الشمائل فى اسناد عن الحسن بن على قال قال الحسين سألت أبى عن سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى جلسائه فقال : « كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولاغليظ ولاصخاب ولافحاش ولاعياب ولامشاح . يتغافل عما لايشتهى ولايؤيس منه راجيه ولايخيب رجاءه فيه . قد ترك نفسه من ثلاث : المراء والاكثار ومالايعنيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لايذم أحداً ولايعيبه ولايطلب عورته ولايتكلم إلافيمارجا ثوابه . واذاتكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير ، فاذا سكت تكلموا ، لايتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أولهم ، ويضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته حتى انه كان أصحابه ليستجلبونه (وقصدهم من استجلابهم أن يكثروا سؤاله فيستفيدون هم من أجوبته) ، ويقول اذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فارفدوه ولايطلب الثناء إلا من مكافىء ، ولايقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهى أوقيام »

هذا وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى المباحات كلها ولايتحرج الامن المحرمات ، والمحرمات فى الاسلام محرمات فى العقل والطبع والوضع ؛ فكان يلبس مايلبسه الناس مسلمهم وكافرهم حتى

انه لبس الجبة الرومية ذات الاكمام الضيقة ، والقلنسوة الفارسية المجوسية . وكان يرجل شعره بالمشط ويدهن بالطيب ، وكان يتكلم فى كل موضوع مع أصحابه . قال زيد بن ثابت من حديث : « فكنا اذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، واذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، واذا ذكرنا الطعام ذكره معنا » . وعن جابر بن سمرة قال . « جالست النبى صلى الله عليه وسلم أكثر من مئة مرة ، وكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسم معهم »

وكان هو نفسه ينشد الشعر ويصغى الى من ينشده ، ويستحسن الحسن منه ويجيز من يمدحه به ، وقد أشاد بذكره فقال : « أن من الشعر لحكمة » ودعا لشاعر فقال: «لافض الله فاك »

وكان يمزح ويداعب أصحابه فقد روى أنس بن مالك أن رجلا طلب الي رسول الله صلى الله عليه وسلم مايحمله . فقال له انى حاملك على ولد ناقة . فقال يارسول الله ماأصنع بولد الناقة ؟ ظنا منه انه سيعطيه فصيلا . فقال له وهل تلد الابل إلا النوق ؟

وروى أنس هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم صادف رجلا اسمه زاهر وهو يبيع متاعا له ؛ فاحتضنه من خلفه وهو لايبصره . فقال زاهر من هذا ؟ أرسلنى . ثم التفت فعرف النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعل النبى يقول من يشترى هذا العبد ؟ مداعبة له

وحدث المبارك بن فضالة عن الحسن قال : « أتت عجوز النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله أدع الله أن يدخلنى الجنة . فقال النبى يأم فلان أن الجنة لايدخلها عجوز . فولت المرأة تبكى .

فقال النبي أخبروها انهـا لاتدخلها وهى عجوز ، ان الله يقول إنا انشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً عربا أترابا »

ودخلت عليه امرأة فى شأن زوجها ، فقال لها النبى أزوجك الذى فى عينيه بياض ؟ فظنت المرأة انه يريد بالبياض مايصيب سواد العين . فقالت لايارسول الله . فتبسم وقال لها أتخلو عين انسان من بياض ؟

حدث سعيد المقبرى عن أبى هريرة أن بعض أصحاب النبى قالوا له يوما يارسول الله انك تداعبنا . فقال نعم غير انى لاأقول إلاحقا.

فاذا كان رسول الله وهو الذى كان يجوع حتى يشد على بطنه حجراً وحجرين زهداً فى متاع الدنيا ، ويقوم الليـل متهجدا حتي ذكر الله له ذلك فى الكتاب،وله من مشاغل منصبه ماتنوء به الجماعة اولوالحول والقوة ، يصيب من هـذه المباحات مايروح به نفوس أصحابه،ويستجم به من نشاطهم وقواهم المعنوية ، فهل يسوغ لاحد ان يمثل الدين عابس الوجه قطوبا ، اذا سلك طريقا سلك الناس غيره مجافاة له وهربا من تكاليفه ؟

على ان فى الكتاب آيات لم يجىء لها ضريب فى أديان البشر ، وهى قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وقال : « خذوا زينتكم عنـد كل مسجد » وقال : « فكلوه هنيئا مريئا »

فالدين الذى يصرح بأنه لم يحرم التزين ولا المتاع بالأكل الطيب، ويتخذ رسوله خاتما من فضة ، وغاشية لسيفه فيها ذهب ، كما رواه الامام الترمذى فى شمائله ، ويندب الي الرياضة البدنية حتي المصارعة ، وقد

صارع هو نفسه ركانة أقوى الناس عليها قبل الاسلام فصرعه ، ولايخفى ماللرياضة البدنية اليوم من المنزلة عند أرقى الامم ، قلنا الدين الذى يصرح هذا التصريح ، ويبيح هذه المباحات، ويكون رسوله من حسن الطريقة فى الحياة على ماعلمت ، لايصح أن يمثل للناس على غير صورته الصحيحة ، فيهرب الناس من وجهه، ويفرون من أهله ، ولايذكرونه الا فى معرض التكاليف الشاقة ، أوأحوال الموت ومابعده .

هذا هو الاسلام من ناحية المباحات ، أما من ناحية الشق الثانى وهو أنه لايضيق مااتسع من المحاولات ، فكيف يعقل انه يعمد الي تضييقها وهو الذى أعطى العقل سلطانه المطلق يجول فى كل مجال ، ودفع بالناس فى الحياة غير مقيدين الا بما تشعر الفطرة السايمة بوجوب التقيد به ؟

إن الدين الذى يقول لاهله : « من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » الحديث ، والذى لايقصر العبادة على الاعمال الشكلية التى عرفت عنها ، فيعتبر كل مايقصد به الخير عبادة ، فطلب العلم عبادة ، وطلب القوت عبادة ، وتألف الناس عبادة ، وعيادة المريض عبادة الخ حتي قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان المؤمن ليؤجر فى كل شيء حتي فى اللقمة حتى يرفعها الي فى امرأته » فالدين الذى يكون على هذه الشاكلة لايعقل أن يضيق على أحد مااتسع من المحاولات ، وقدرأيت فى تاريخ أهله انهم بنوا لدينهم وأمتهم مجدا من هذه الناحية لاتطمس آثاره ، ولاتعفو معالمه ، ولكنها ستزداد

وضوحا وجلاء كلما ازداد الناس علما وارتقوا فى معرفة الحق

ننظر فى الفصل التالي فى مطلب آخر من مطالب الاوساط ان شاء الله

الاسلام مرن يسع كل مايجد من الآراء العلمية والمذاهب الفلسفية

من مطالب الاوساط من الدين أن يكون مرناً يسع مايجد من الآراء العلمية ، ولا يستعصى على مايثبت أو يرجح من المذاهب الفلسفية ، ولا مايقوم الدليل عليه من الشؤون الكونية ، فننظر الآن فى هذا المطلب فنقول :

قليل على الاسلام أن يوصف بالمرونة وسعة الصدر للآراء والمذاهب والكونيات ، لانه دين اطلاق وتعقل وتفكير ومطالبة بالفهم وبالدليل ، واشعار بالتبعة الشخصية ، ونهى عن التقليد ، وقد كان الناس الي عهده أسرى الاوهام والاضاليل ، وصرعى الموروثات والتقاليد ، ليس فى الدين فحسب ولكن فى العلم أيضاً .

نعم فى العلم الذى يفخر اليوم بأنه أطلق العقل من إساره ، وخلصه من أغلاله ، وأقعد المعلومات على أساس الواقع المحسوس . العلم صادق فيما يدعى ولكن منذ القرن السابع عشر فقط على يد العلامة الانجليزى (باكون) .

اما الاسلام الذى سبق (باكون) بنحو الف سنة فانه يمثل هذه الآيات : « قل انظروا ماذا فى السموات والارض » « افلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » « وقل رب زدنى علما »

« ويخلق مالا تعلمون » « وتلك الامثال نضربها للناس ومايعقلها الاالعالمون » « ولو أن مافى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله » أى آياته وحكمه . ومثل هذه الآيات فى النعى على الخياليين والمقلدين : « إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لايغنى من الحق شيئا » « قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولايهتدون » « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ، ومثل هذه الآيات فى وجوب التثبت والتدقيق : « ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » بمثل هذه الآيات أقام الاسلام العلم على أساسه الطبيعى الثابت ، ودفع بأهله الى غاياته البعيدة . فالدين الآتى بهذه التعاليم قليل عليه أن يوصف بالمرونة ، لانه جاء بما هو فوق المرونة وهو فرضه العلم فرضاً فقال « طلب العلم فريضة » والدعوة الي تطلبه ولو من أقصى المعمور فقال : « اطلبوا العلم ولو بالصين »

فهل مانقوله هنا غلو قضى علينا به التحمس للدين ، والتذرع لمكافحة المشككين ، أم هو الواقع المحسوس الذى لامعدل عنه مهما حاول ذلك المحاولون ؟

اننا ندع للقارىء حرية الميل لاى الاحتمالين شاء بعد أن يصغى الي مانقول :

جاء الاسلام الي العرب فى عهد كانت فيه حياتهم الاجتماعية قد استوت على قرار منذ قرون ، فأهل البداوة منهم كانوا اهملا ، ومن الفوضى

بحيث كانوا يتناحرون . وكان من جاور الفرس والروم منهم قد وقعوا تحت نير هاتين الدولتين منذ قرون ، واستخذوا لهذه العبودية وألفوها ولم يحركوا ساكناً لرفع نيرها عنهم .

زد على هذا أن الامة العربية كانت تكاد تكون وحيدة فى عقمها من الناحية الكتابية: فلم تترك لنا كتابا واحداً حتى ولا ماتحرص عليه كل أمة من مخطوطات دينية ونقوش طلسمية.

جاء الاسلام الي هذه الامة وهى فى هذا الدور من الجاهلية الجهلاء: فصاح بها صيحات تحمل فى تياراتها نفحات من روح الحق ، فهبت من سباتها العميق تتطلب الحياة ، وقامت على طريق التطور الاجتماعى ، فما مضت عليها مئتا سنة حتى أصبحت صاحبة الخلافة العلمية والسياسية فى الارض ، وكانت سببا مباشراً فى حفظ تراث الانسانية من ثمرات العقول ونتاج الفهوم.

فهذه الحركة العلمية القوية فيها مانشأت الا ابباعث لايعاصى من الاسلام ، ومااتجهت وجهتها الا تحت املائه ، وماتوسعت والمت بجميع فروع المعارف الا بسائق منه . وقد شهد بذلك جميع مؤرخى العالم قديماً وحديثا .

وانى اليوم لمؤات القارئين بالشواهد التاريخية على أن المسلمين الاولين لم يحرموا على أنفسهم مذهباً من المذاهب ، ولم يهملوا رأيا من الآراء، ولم يهجروا أسلوبا من الاساليب بحجة دينية ، ولكنهم ألقوا بأنفسهم أحراراً فى عباب العلوم والفلسفات غير مقيدين ولا متأثمين فبنوا لنا من ثمرات جهودهم صرحا من المجد لاتعفى على آثاره الدهور

قال العلامة « درابر » المدرس بجامعة نيويورك فى كتابه « المنازعة بين العلم والدين » :

« لقد كان تفوق العرب فى العلوم ناشئا من الاسلوب الذى توخوه فى مباحثهم ، وهو أسلوب اقتبسوه من فلاسفة اليونانيين الاوروبيين . فانهم تحققوا أن الاسلوب العقلى لايؤدى الى التقدم ، وأن الامل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الاسلوب التجريبي والدستور العملى .

الي أن قال :

« وهذا الاسلوب هو الذى أوجب لهم هذا الترقي الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات . وهو أيضاً الذى أداهم لاكتشاف علم الجبر ودعاهم لاستعمال الارقام الهندية الخ »

« ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منظمة لاجل أن يتوصلوا الي تكوين المكتبات التي تكلمت عنها ، وقد قيل إن المأمون نقل الي بغداد مائة حمل بعير من الكتب ، وقد كان أحد شروط الصلح بينه وبين ميشيل الثالث أن يعطيه إحدى مكتبات القسطنطينية التي كان فيها من الذخائر الثمينة الاخرى كتاب بطليموس على الرياضيات السماوية ،فأمر المأمون بترجمته الى العربية وأسماه المجسطى »

ثم قال عن همة المسلمين الاولين فى ترجمة الكتب العلمية :

« لقد كان يوجد فى كل مكتبة كبيرة محل خاص للنسخ والترجمة ، وقد كان لبعض الخاصة مثل ذلك . فان هونيان الطبيب النسطورى كان له محل من هذا القبيل ببغداد سنة (٨٠٥) م . ترجم فيه كتباً

لارسطو وافلاطون وهيبوكرات وجالينوس الخ

الي أن قال :

« وكانت قيادة المدارس مودعة لذوى المدارك الواسعة ، فكانت امابيد النسطوريين أو اليهود ، لان المسلمين لم يكونوا يتحرون عن جنس العالم وديانته ، وما كانوا يزنون قدره الا بأعماله »

الى أن قال :

« وانا لندهش حينما نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ، ما كنا نظنه من ثمرات العلم في هذا العصر . من ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهباً حديثاً كان يدرس في مدارسهم ، وقد كانوا جروا به الي مكان أبعد مما وصلنا اليه ، وذلك بتطبيقه على المعدنيات أيضاً » انتهى

نقول أن من يتأمل فيما ذكرناه يرى أن المسلمين الاولين قد ألقوا بأنفسهم في باحات العلم مطلقين غير مقيدين ، فلم تكن هنالك سلطة دينية تحاكم العلماء على التفكير والتعليم ، وتحاول أن تجعل العقل والعلم تحت وصايتها فتقف حجر عثرة في سبيله .

وأنت ترى انهم أخذوا عن اليونان فيما أخذوه كل ما أثمرته قرائحهم غير متحرجين من شيء : وفي الذي أخذوه أشياء ورد في ظاهر ألفاظ الكتاب الكريم مايخالفها كمسألة كروية الارض ، فان فيه آيات نصت على انبساطها . وجرهم العلم نفسه الي القول بالنشوء والارتقاء ؛ وفي الكتاب نصوص صريحة تقول بالخلق المستقل ، فهل كانوا في هذا مستهينين بالدين : وفي مقدمتهم الخلفاء ومن دونهم من العلماء العاملين ؟

لا لا ، ولكنهم كانوا فى حركتهم هذه جارين على مذهب الدين نفسه، فان الاسلام، وقد أطلق العقل من عقاله وأعطاه كامل سلطانه ، كان يعلم انه سيهجم بأهله على مذاهب وآراء تخالف ظاهر ألفاظ الكتاب، فاحتاط العارف بأسرار هذا الدين لهذا الامر، فوضعوا له قاعدة كلية فى كتبهم الاصولية وهى : انه اذا خالف حكم العقل ظاهر نص الكتاب أو السنة، وجب التعويل على حكم العقل، وتأويل ظاهر النص . لذلك لم يصطدم الدين بالعلم ، ولا بالمذاهب الفلسفية فى العهد الذهبي للمسلمين ، فكان فى هذه القاعدة مخرج للعلماء فى الاخذ بالآراء ايا كانت ، وفى الجرى بالعلم والفلسفة الى أقصى حدودهما غير متحرجين ولا متأثمين .

هذه القاعدة الاصولية من أعظم ماأوجده الاسلام من القواعد المؤسسة لحرية العلم ، والموطدة لدولة العقل ، وهى فى الوقت نفسه من أدعى القواعد للاعجاب بسمو هذا الدين ، وللتعجب من سبقه العالم كله بنحو عشرة قرون لتقرير الدستور العلمى ، ولاطلاق حرية النظر والتفكير بغير اعتداد بشىء غير مصاحبة العلم والفلسفة خالصين من كل وصاية ورقابة . ومن أعجب العجب أن المفسرين للكتاب جروا على سنة العلم نفسه، فقرروا كروية الارض وسواها من المسائل التي تخالف ظاهر ألفاظ الكتاب ،صائرين الي تأويلها لتوافق مذهب العلم ، مستفيدين من تلك القاعدة الاصولية العظيمة، فكانوا بذلك ممهدين لاقوم السبل لمن يأتى بعدهم عند مايستبحر العلم ويكشف للناس مالايخطر ببال .

فهل فى الاديان المعروفة شيء من هذا النوع ولو شئنا لملأنا مجلدات من أخبار مكافحتها للعلم والعقل ، وترتيبها العقوبات القاسية على كل صغيرة وكبيرة منهما أكثر من عشرة قرون متوالية ؟

ولكنك لو علمت أن هذا الدين شرع ليكون دين البشرية العام الخالد ، وأنه أنزل الي الناس فى آخر الزمان حيث يبلغ العلم أبعد شأو ، وتمتد الفلسفة إلي أبعد مما يتصوره الخيال البعيد المدى ، وتكثر المسائل التى تخالف ظواهر الالفاظ الواردة فى الكتاب ، لبطل تعجبك وأدركت أن العاقبة له حتما وأن كره ذلك الكارهون ، مصداقا لقوله تعالى: «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد» .

أسلوب الاسلام فى بناء الاخلاق ومذهبه
فى اعطاء العقل حريته فى التطور

يطلب الاوساط من الدين فيما يطالبونه ان يرشدهم الي طريق الآداب والاخلاق دون أن يحاول تحديدها، تاركا للعقل حرية التطور فى الشعور بها ، وبلوغ الغاية التي تنتظر منها

هذا نفسه هو أسلوب الاسلام ليس فى الاخلاق فحسب ، ولكن فى كل ماله مساس بالانسانية ، تفاديا من التحجر الذى يصيب النظم فيصبح شأنها شأن التماثيل تضاف الي أمثالها مما صنع فى أزمان مختلفة ، وتمسى الحياة فى واد وهى فى واد آخر.

لذلك حرص الاسلام على أن لا يعطى، على ما يجب أن يتطور بتطور الانسان من أموره الحيوية، الا أصولا عامة لتبقى هذه الاصول حية

خالدة كالنواميس الطبيعية ، يحوم الانسان حولها مستسلما لفواعل التطور . وهذا أقصى مايرجى من فرد أو جماعة حيال الاصول الخالدة . وهـذا الموقف فى الوقت نفسه يؤثر أعظم تأثير فى أعمال الانسان ومراميه ، ويطبعها بطابع خاق يزداد أثره ظهوراً على مر السنين .

كل كائن فى العالم يحمل من الروح العام نفحة يقوم بها مبناه ومعناه معا . والانسان يحمل أكبر قسط مما تحمله الكائنات من هـذا الروح . وهو الذى يرفعه من حضيض الحيوانية، ولاينى يدفعه الى التطور والي الاستقامة . وهذا القسط الروحانى الاكبر الدافع الي التطور، والمتأدى بذويه الى أرقى الممكانات، هو الذى دعاه الكتاب الكريم بالامانة، فقال تعالي: «إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا» انه كان ظلوما وجهولا لا لقبوله حمل الامانة، ولكن لحيده عن الصراط السوى وهو يحمل هذه الامانة فى سويداء قلبه . فالكلام تحضيض على مراعاة حقوق هذا السر الاقدس فى صورة تبكيت . وهذا أبلغ ماقرأه الناس فى الحث على مراعاة كرامة الانسانية ، وعلى تجلية التبعة الادبية التى تتحملها البشرية . والتعبير بالامانة أجمل ماعرفوه من التنويه بالفضيلة التى لايخلو قلب من قبسة آلهية منها .

بعد تقرير هذا الاصل الاصيل الذى يجعل التكمل فى الاخلاق والصفات والميول أمانة فى عنق الانسان ، وجه الاسلام عنايته لايقاظ غريزة الرجولة فى النفس الى أبعد حد ، ورفع رين الكثافات عن قبس الروح المودع فى جبلته، وقد اختار الاسلام لتجلية هذا الاصل

فيه موطناً من أدق مواطن النفس،حيث تتساط العاطفة الدينية فتستولي على الشخصية وتسوقها وراء صغريات الامور تحت عنوان الورع أوالتنزه عن كل ماهو أرضى : مستوعبة جميع قواها فى سبيلها ، فتجعل الامة كلها كجماعة من المتنطعة انقطعوا للعبادة الجسدية، لايغنون عن أنفسهم ولاوطنهم شيئاً ، فقال تعالي : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذاعاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ».

ومعناها ليس العمل الصالح أن تتلفتوا شرقاوغربا تتحرون مكان القبلة ، ولكن العمل الصالح هو أن تؤمنوا بالله وبالآخرة وبالملائكة وبالكتب الآلهية وبجميع النبيين استكمالا لحقوق أرواحكم ، وأن تؤتوا المال،على شدة تعلقكم به؛ ذوى قرباكم واليتامى والمساكين والمسافرين والسائلين ؛ وأن تعملوا على فك رقاب الاسرى بأداء دياتهم قياما بحقوق المجتمع وتوفية لروح التكافل فيه ؛ وأن تقيموا الصلاةوتؤتوا الزكاة تطهيراً لارواحكم وأموالكم، وأن توفوا بالعهود، وأن تصبروا فى مواطن الشدة من فقر أومرض أوحرب ، من يفعلون هذا كله فهم الذين صدقوا فى اسلامهم وأولئك هم المتقون بحق ، لاالذين قصروا عملهم على تحري القبلة وبعض الصغريات التى لاتتصل بكبريات الامور الاجماعية ، مصروفين بها عن جميع صفات الروح

التي تحفظ وجودكم، وتصون أوطانكم، وتمكن لكم فى الارض .

فهذه الآية تكشف عن مذهب الاسلام فى الاخلاق وتجعل الناظر فيه أن يلمس بيده العلل الاولية التي جعلت من المسلمين المتقدمين وحدة مندمجة لم تتجه إلي غاية الابلغتها ، ولم ترم الى غرض الا أصابته.

ولك بعد هذا أن تتلو الكتاب لترى أن كل ماورد فيه حثا على محامد الخلال، مقصود به ايقاظ غريزة الرجولة لا إماتتها كما فعل سواه.

ألا تعجب من دين يسوى فى التبعة بين الظلم والانظلام ؟ فمن ترك نفسه يظلم فهو كمن ظلم غيره على حد سواء ، ويحض على عدم قبول بغى الغير ، فقال فى صفات المؤمنين : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لايحب الظالمين » .

هنا نسرع فننبه أن الاسلام لايعتبر التجاوز عن الحق ممدوحا ان كان عن عجز وقصور ، فان تعبيره يقتضى القدرة على المجازاة اذ لا يعفو الا القادر ، فلا يقال ضربت الجبان فعفا عنى ، ولكن يقال ضربت الجبان فعجز أو فاستخذى أو فنكص على عقبيه الخ الخ .

ولم يكتف الاسلام بهذا ولكن ذهب الي عدم قبول الاعتذار بالضعف، فقال فى قوم هالكين: « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الارض ، قالوا ألم تك أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » .

هذا أغرب مايروى عن دين فى العالم ، لان المعهود أن الاديان

لاتعبأ بالقوة الاجتماعية ، بل تؤدى الى الضعف فيها وتعترف به ، ولـكن الاسلام لايعتبر الضعف عذراً،ويوجب على أهله أن يكونوا أقوياء فى مجتمعهم ، وكل هذا متنزل من أصـله الاصيل فى ايقاظ الرجولة فى النفس البشرية .

ولـكن بث هذه الروح فى الامم كثيراً ماأصابها بروح التجبر والتغشمر ، فجاء الاسلام بمعدلاتها من التنويه بفضيلة العفو عند القدرة ، والمسامحة اذا كانت أبلغ فى المجازاة ، فقال : « ولاتستوى الحسنة ولاالسيئة ، ادفع بالتي هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، ومايلقاها الاالذين صبروا ، ومايلقاها الاذو حظ عظيم » . وقال : « وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، انه لايحب الظالمين » . وقال : « ويدرأون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبي الدار » . وقال : « ادفع بالتي هى أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصنعون » . وقال : « وأن تعفوا وتصفحوا فان ذلك من عزم الامور » .

وقدجعل الاسلام من معدلات روح الرجولة اقامةمبدئها نفسه ، وتحمل عبء الخلق الممتاز، حتي فى المواطن التى اعتادت الامم أن تهدر فيها الدماء غزيرة ، وتعد ذلك قربات عند الله ، وهى مواطن الانتصار للدين حيال من يريدون القضاء عليه وعلى أهله بحمية الجاهلية اعلاء لشأن الوثنية ، فطالب الاسلام أهله بالعدل وعدم الاعتداء حتي فى هذه المواطن، التى تغلى فيها الرؤوس وتطيش الاحلام، فقال تعالي : « ولايجرمنكم شنآن قوم (أي ولاتحملنكم عداوتكم لقوم)

أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان، واتقوا الله ان الله شديد العقاب » .
وقال : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين » . وقال : « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »

وزاد الاسلام على هذه المعدلات معدلا من روح البطولة والخلق العالى ، فحرم على ذويه فى هذه المواطن الخطيرة الاخذ بالظنون، وكلفهم بالتبين والتثبت فى هدر الدماء البشرية، وهو مالم يسمع بمثله فى تاريخ أمة من الامم ، وبخاصة فى الحروب الدينية التي يقتل فيها الرجل أباه وأخاه ولا يبالي فقال تعالي: « يأيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا (حتى لاتهدروا دما خطأ)، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا» .هذا مع انه ثبت لهم أن الكافرين كثيرا ما كانوا يستفيدون من هذه السماحة فيظهرون الاستسلام والسيف يهوى الي أعناقهم؛ ومتى زال عنهم الخطر عادوا الي خصومتهم . وقد حدث أن أحد الصحابة لم يبال بقرن له نطق بالشهادتين والسيف يهوى الي عنقه، فقتله ، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك غضب منه غضباً شديداً، وتبرأ الى الله من عمله . فقال له الصحابي يارسول الله هذه خديعة منه . فقال ولوكانت فاننا أمرنا أن نأخذ بالظاهر .

فهذه الدرجة فوق الرجولة . فهى بطولة صحيحة ، وخلق سام ليس وراءه مذهب . ولقد تنمو هذه الغريزة وتشتد حتي تستحيل الى وحشية، كما استحالت اليها لدى أمم كثيرة ، فاحتاط الاسلام لذلك

من كل ناحية ، وأنجح فى ذلك فاشتهر أهله بحسن الجوار فى كل تاريخهم الحافل بعظائم الامور .

ومن معدلات هذا الخلق روح التضامن الذى بثه الاسلام فى أهله بقوة لم تعهد فى نحلة من النحل ، فقرر أولا أن الدين النصيحة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « الدين النصيحة » ، فقالوا لمن يارسول الله ؟ قال : « لله ورسوله وعامة المسلمين وخاصتهم » ، ثم جعل الامر بالمعروف والنهى عن المنكر حقاً من حقوق كل فرد فى المجتمع ، وواجباً عليه يسأل عنه . فقال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » . وقال فى قوم من الهالكين : « كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أوليسلطن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيران » . فلكل مسلم بحكم هذه الآيات الحق فى إبداء النصيحة للمجموع ، وهو حق دستورى لم يتقرر إلا فى آخر القرن الثامن عشر ، فكان من ضمن حقوق الانسان التي أعانتها الثورة الفرنسية .

ولما تم للاسلام احياء غريزة الرجولة فى نفوس أهله ارتفع بهم الي درجة البطولة ، وطالب أهله بمقتضياتها وهى : —

أولا — قول الحق ولو على النفس والاقربين ، فقال تعالي : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين » .

ثانياً — الترفع عن تطلب الثناء على الاحسان فى كل عمل ، فقال

تعالى : ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا . انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكوراً »

ثالثاً — ايثار المحتاج على النفس فقال تعالي : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »، والخصاصة الفقر .

ثم ماذا أقول والقرآن بحر متعنجر من الاخلاق النبيلة ، والشمائل الجليلة ، وبحسبي أن أكون قد وفقت للالمام بأصولها الاولية التى تقوم عليها ، ذلك أولي بى فى عجالة مثل هذه .

شريعة الاسلام هى القرآن وهى أصول العدل المطلق

يرجو الاوساط من الدين أن لا يكون الا أصولا أولية، تصح أن تكون دستوراً للمشترعين، لا أن تكون شريعة تفصيلية ان انطبقت على الحوادث فى عهد شذت عنها فى عهد آخر .

ونحن نقول إن الشريعة الاسلامية توفى بهذا المطلب على أكمل الوجوه ، فهى محصورة فى القرآن الكريم وهو مجمل فى مواطن كثيرة منه ، لذلك اضطر الخلفاء الاولون أن يستأنسوا بما قضى به النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانوا اذا لم يجدوا ضالتهم من السنة، عملوا بآرائهم مستنيرين بالعرف والحقوق الطبيعية والاصول التشريعية المقررة فى القرآن.

فلما امتد الملك الاسلامى ونبغ العلماء الكبار فى عواصم الاسلام، عالجوا الامور التشريعية مقررين أن للشريعة الاسلامية أربعة أركان، الكتاب والسنة والقياس واجماع المسلمين ، وهو مايعبر عنه اليوم

بالاستفتاء العام .

ولا بد لنا قبل الكلام على الشريعة الاسلامية أن نلفت القارىء الي أمور هامة تستوعب منا مقالا برمته، وكلاهما من أكبر وأجل مايؤثر فى تاريخ شريعة ، وقد أصبحت بما فتح على الناس من أسرار التشريع من المعجزات الخالدة لهذا الدين، والسيرة النبيلة لرجاله الاولين .

(أولها) إن التشريع فى الاسلام لم يسند الي طائفة خاصة ، ولا حصر فى طبقة معينة ، ولا جعل من حظ العرب وحدهم ، ولكنه جعل حقاً شائعاً للكافة يتناوله من شاء من المسلمين حتي المماليك الاجانب وأبناؤهم ممن كان يطلق عليهم العرب كلمة الموالي ، ثم ترك للرأى العام الحكم فى الاخذ بما يقال أو اهماله . لذلك اتفق أن كان جمهرة أئمة الاقاليم وزعمائها فى الدين من هؤلاء الذين كانوا أرقاء أجانب أو ولدوا من آباء كانوا أرقاء أجانب . قال العلامة السخاوى فى شرح ألفية الحديث للعراقى : إن هشام بن عبد الملك الخليفة الاموى قال للزهرى أمام الحديث : « من يسود أهل مكة . قال الزهرى عطاء . قال هشام بم سادهم ؟ قال الزهرى سادهم بالديانة والرواية . قال هشام نعم من كان ذا ديانة حقت الرياسة له . ثم سأل الخليفة عن اليمن ؟ فقال الزهرى إمامها طاووس . وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة (ولايات الدولة الاسلامية) ؛ فأخذ الزهرى يعد له سادات هذه البلاد ، وكلما سمى له رجلا كان هشام يسأله هل هو عربى أم مولي ؟ فكان الزهرى يقول مولي ، الي أن أتى على ذكر النخعى فقال انه عربى . فقال هشام الآن فرجت عنى ، والله ليسودن الموالى العرب ،

ويخطب لهم على المنابر » .

(ثانيها) : انه لم يوضع للتشريع أسلوب مقرر لايجوز تعديه ، فترك لكل ناظر الخيار فى انتخاب أسلوبه ، فلذلك تخالفت أساليبهم الي حد بعيد ، وأشدماتكون عليه تخالفاً بين أصحاب الرأى والقياس، وبين أصحاب الحديث . فالاولون وعلى رأسهم أبوحنيفة النعمان (توفى سنة ١٥٠ هـ) كانوا يرون أن الرأى والقياس الصحيح أولى بالاتباع من الاحاديث التى رواتها آحاد ، ولم يصح عندهم من الاحاديث التي رواتها جماعة، أى المتواترة التي لاعذر لاحد فى الشك فيها، الابضعة عشر حديثاً . والآخرون أخذوا بأحاديث الآحاد ان قوى اسنادها وثبتت بغلبة الظن صحتها .

(ثالثها) : انه لم يخص التشريع بزمان دون زمان، فقد كان للقرن الاول أئمة وللثانى أئمة يقلدهم الناس يبلغ عددهم السبعين أو يزيدون ، فاذا لم يبق لهم أتباع الى اليوم فلأن المسلمين وجدوا فى مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل غنى عن بقية المذاهب فاتبعوها وأهملوا ماعداها .

ولكن سلسلة الامامة فى الدين لم تنقطع ، لنص العلماء على رجال من أهل القرن الرابع والخامس ومابعده بأنهم وصلوا الي درجة الاجتهاد ، ولا يزال الباب مفتوحا الي يومنا هذا ، ولن يزال مفتوحا على مصراعيه حتي تقوم الساعة.

(رابعها): أن أحداً لم يحجر على أحد حريته فى اتباع أى المذاهب الفقهية شاء ، بل ولم تحجر على أحد حريته فى اتباع مذاهب المعتزلة

والخوارج والفرق التي اعتبرت مبتدعة ، فقد كان لهم ممثلون في جميع عواصم الاسلام، وكان الكافة يجتمعون في المساجد فيتناظرون ثم يرجع كل منهم الى داره آمنا في سربه لايزعج طمأنينته أحد .

(خامسها): اجماع المسلمين على أن الاجتهاد في تنور أسرار الشريعة واجب على الحاصلين على مؤهلاتها ، ولذلك لم يكرهوا قط أن تتعدد المذاهب ، وهم في ذلك كانوا يصدرون عن طريقة النبي صلى الله عليه وسلم نفسه فقد قال : للمجتهد أجران إن أصاب وأجر إن أخطأ .

(سادسها): كان المسلمون لايروعهم الخلاف بين المجتهدين مهما كان بعيد المدى ، بل كانوا يقابلون هذه الخلافات بارتياح عظيم ، وكانوا يكبرونها الي حد أن جعلوها علماً خاصاً سموه علم الخلاف ، فكانوا يتدارسونه كما يتدارسون أصول الفقه لتحصيل ملكة السريان في سرائر المسائل المعقدة . وسرى الترحيب بهذا الخلاف الي العامة فقالوا اختلافهم رحمة

هذه الامور الستة التي حصرناها هنا ونحن بسبيل الكلام عن الشرع الاسلامى لايصح أن ندعها من غير تعليق عليها، فانها أعجب مايروى عن شريعة دينية ، وتبين عن أغراض سامية، ومرام بعيدة، تضع هذا الدين في مستوى بعيد عن العوامل التى تلحق بالشرائع فتصيبها بالوقوف والتحجر ، وتوجد له من المناعة وقوة الحياة مايتقى بهما كل مايخطر بالبال من دواعي الانحلال ، فيضمن لنفسه الخلود والتفوق في وسط كل تطور من تطورات العقل والعلم معا ، فاليك :

قصد الاسلام بعدم حصره حق التشريع في طائفة خاصة أوجنس

معين ، وبفتحه بابه في وجوه الكافة حتي الارقاء ومن في حكمهم ، أن يجعله عالمياً عاما، لا طائفياً خاصاً، ولا قومياً محدوداً ، وغرضه من ذلك أن يتابع التشريع حياة الامم ويكابد معها كل التطورات التي تدخل فيها، حماية له من الوقوف عند حد محدود ، ومن القصور عن الالمام بحاجات البشر كافة، باعتبار انه دين عام خالد ، وكل ماهو عالمي يعيش بحياة العالم ، ويتبادل وإياه التعاون على قطع مفاوز الحياة ، ويدخل معه في جميع التطورات، ويخرج منها أقوى مما كان وجودا ، وأرسخ أصولا ، وأشمل لحاجات الآخذين به والمعولين عليه . ولكنه لو أسند الى طائفة خاصة أو طبقة معينة ، أو جنس دون جنس، لاصطبغ بصبغة قومية فينطبق على قوم دون آخرين ، ويخرج مع الزمن عن أن يكون شرعا عالميا ، فيقف عند حد، ويزداد التباين بينه وبين الامم، فلا تجد فيه حاجتها ولا ثقافتها ولا روحها ؛ تدعه وشأنه متلمسة من الشرائع ما يكون أولى بها منه .

وقد ترك الاسلام لشعوبه كل شيء من أول تعيين خليفة له، الي تحديد شكل الحكومة، الي ترتيب السلطات العامة، الخ ليكون كل ذلك للشعوب الآخذة به، وما كان هذه صفته عاش ما عاشت الشعوب ، وتطور معها ما تطورت ، وليس بعد هذا ضمان لحياة شريعة عالمية في الارض .

ورمى الاسلام بعدم تحديد أسلوب مقرر للناظرين في شريعته ، عدم حصر دائرة البحث في أمر كلما تعددت أمامه وجهات النظر كان ذلك أعود عليه بالاصابة، وأرجى لبلوغ الغاية .

وهذا فى الوقت نفسه أجدر بدين يعترف بسلطان العقل، ويشيد بدولة العلم ، ويحترم لكل ناظر وجهة نظره فى الحدود التي قررها أولو البصر ، ويقررونها على مر الاجيال والعصور .

والمتأمل فى مدى الخلاف بين أهل الرأى والقياس ، وبين أهل الحديث يرى البون شاسعاً، ومع هذا فقد رضي المسلمون هذا الخلاف الجوهرى بين الفريقين وخصوا صاحب المذهب الاول وهو فارسى الجنس وقليل الحظ من العربية، بلقب الامام الاعظم واتبعه أكثر المسلمين .

والمحير للعقل أن المسلمين أساغوا مذهب أبي حنيفة هذا فى القرن الثانى للهجرة، ودعى هذا الامام لتولي رئاسة القضاء فى الدولة فأبى فتولاها صاحبه أبو يوسف، والمملكة الاسلامية فى أوج عظمتها . فلما نبغ أهل الحديث فى القرن الثالث بظهور مالك والشافعى وابن حنبل احترموا رأى أبي حنيفة ولم يرموه بما يرمى به المخالفون خصومهم ، بل كان بعضهم يصلي خلف بعض من غير اعتداد باختلافهم فى وجهات النظر الي هذا الحد البعيد .

وهذا الادب حصلوه من الاسلام نفسه، فانه خول العقل كامل سلطانه ، ولم يشترط للنظر وجهة معينة ، ولا حدله حداً مقرراً ، بل ترك العقول حرة فى توثباتها لبلوغ الحقيقة المجردة . وهذا الادب إن شوهد بين أهل الفلسفة والعلم ، وكان من مقوماتهما وهو الذى ضمن لهما الاحترام العام، والحظوة بالخلود ودوام الارتقاء ، فلم يشاهد قط بين أهل الاديان ، فقد حصروا النظر فى أمور الدين فى طائفة خاصة ،

ووضعوا له تقاليد لايمكن تعديها بوجه من الوجوه ، لذلك انفصلوا عن جثمان الامة، نخيل اليهم أن هذا الانفصال تميز ففرحوا به وغفلوا عن أن هذا التميز يضيع الدين ويضيعهم معه .

وأراد الاسلام من عدم خص التشريع بزمان دون زمان ، أن يستفيد من الرقي الذى ينال العقول فيكون حظه منه أوفر حظ ، ويندمج فى روح الامم فتتوحد ميولها الدينية وميولها العلمية ، فلا يكون بينهما تناقض من أى نوع كان ، وتدوم الصلة بين الناس وشريعتهم فتدخل معهم فى جميع التطورات المقدرة لهم ، وتتلاءم وأحوالهم الاجتماعية التي يدخلون فيها تحت ضغط الحوادث وفواعل الانقلابات . وقد عاش المسلمون قروناً على هــذا النحو حتي انهم اضطروا الي تأويل كل نص خالف ظاهره حكم العقل والعلم، فقالوا بكروية الارض وبكل ماوصل اليه علم الفلك وغيره ، مع ان فى الكتاب آيات يدل ظاهرها على نقيض ماقالوه، فأولوه جرياً على الاصل الاسلامى نفسه .

وألهم المسلمون عدم الحجر على حرية أحد فى اتباع أى المذاهب شاء ، لقيام دينهم على حرية البحث ، وتحريم التقليد واثبات تبعة كل انسان على عاتقه ، وتقريره أن نفسا لاتغنى عن نفس شيئا، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لابنته : «اعملى يافاطمة فانى لاأغنى عنك من الله شيئا» . فكل مسلم مسئول عن عقائده ومعاملاته ، ومطالب بالبرهان عليها باعتبار انه كائن رشيد منح كل الصفات التى تجعله رشيداً، وقد أوتى عقلا يميز به بين الحق والباطل .

وقد رحب المسلمون بتعدد المذاهب وشجعوا عليه، لثقتهم بأن ماأبهم على واحد فى أمر من الامور قد ينكشف لآخر ، وما استعصى على ناظر من الناظرين قد ينقاد لغيره، فلا يحرمون من مزايا العقول فى تصيد الحقائق ، وهى من السعة بحيث لو تجرد الناس كلهم للبحث عنها لما كانوا مغالين فى ذلك . بل الاسلام فى تقريره عدم قبول ايمان المقلد يشجع الكافة على الحصول على هذه الدرجة ، ولا يسد على أحد مجال الجهاد فى هذه الناحية، ولهذا السبب عينه لم يخص الاسلام الاجتهاد بجنس واحد ولكن فتح مجاله حتى أمام الارقاء ومن فى حكمهم، وهذا مالم يسجله دين لاهله من سعة الصدر الي اليوم .

ومما يجب أن يدون لهذا الدين من المفاخر الخالدة فى هذا الباب، تقريره أن المجتهد يؤجر وان أخطأ . فهذا الاصل الاسلامى يعتبر من أفعل المنشطات لاعمال العقول وتبارى الرويات ، ويدل على أن مقصد هذا الدين الوصول الى الحقائق العالية لا الانحصار فى دوائر ضيقة والجمود فيها ، فيجىء ناموس الترقى فيدفعهم للخروج منها ، فيوقر فى نفوسهم انهم خرجوا على الدين، ويكون التنازع فى صدورهم مثاراً لشبهات وشكوك لا تقف بهم عند حد ، ثم يؤول أمرهم الي نبذ الدين ظهرياً .

هذه الامور الهامة كان يجب علينا أن نقدمها بين يدى كلامنا على أصول الشريعة، لان عليها يتوقف العلم بسمو مذهب الاسلام فى هذا الامر الجلل الذى له الاثر الحتم فى حفظ كيان الامم . وفى وحدة وجودها وتدرجها فى معارج الكمال الي غير حد .

فى الفصل التالى نأتى على ما وعدنا به من الاصول الخالدة لهذه الشريعة السمحة والله المستعان .

نظره على أصول الشريعة الاسلامية

لم تر الارض شريعة أرسخ قواعد فى العــدل ، ولا أبعد مدى فى المساواة واحترام الحقوق ، ولا أجمع لاصول الحياة الاجتماعية ، وأشمل لعناصر التطورات الانسانية ، من الشريعة الاسلامية . ذلك لانها قامت على مراعاة الحقوق الطبيعية ، وراعت فى وضعها لا مصلحة المجتمع الاسلامى وحده ، ولــكن مصلحة المجتمع البشرى كله ، بل والمجموع العالمى عامة ، ولاحظت فى بنـاء جماعتها الا يكون أمرهم قائما على التضخم بامتصاص دماء المقهورين ، ولــكن على بذل النفس والنفيس فى سبيل إقامة المثل الاعلى .

هذا كلام يحتاج لبيان فاليك :

أدرك الانسان فى العصور الحديثة أن هنالك عدلا مطلقاً ، وحقوقا طبيعية لــكل فرد وكل جماعة ، فقصارى الشرائع التي تعتبر اليوم عادلة أن تقرب بالانسان الى هذا العدل وهذه الحقوق لا أن تؤاتيه بها كاملة . وفى اليوم الذى تستطيع أن تبلغ به الي هذه الدرجة من الـكمال تـكون قد وصلت الي المثل الاعلى الذى كانت تتطلبه ولا تبلغه .
ولــكن الاسلام انفرد عن جميع الشرائع فى تقرير العدل المطلق والحقوق الطبيعية للافراد والجماعات معا .

نعم قد أقر الاسلام الاسترقاق والحرب والفتوحات وضرب الجزى (جمع جزية) على المقهورين ، وكل عالم بالاجتماع يرى له فى ذلك واسع

العذر ، فان كل هذه الامور كانت من عوامل الحياة الاجتماعية ، ومن فواعل التطورات الانسانية ، فكيف كان يتسنى لدين يريد أن يكون عمليا لا خياليا أن يبطل الاسترقاق ولم يحن وقت ابطاله الا فى القرن التاسع عشر ، أو يمنع الحرب ولا تزال الحرب الي اليوم الوسيلة الوحيدة لاثبات الحقوق ؟ وكيف يحرم متبعيه من أقوى بواعث العمران ، بل مما به وجودهم احياء بين الجماعات ؟ ألا يرون أن الاديان التى جاءت بالسلام والاستسلام قد اضطر اتباعها لمخالفتها ، وانقلبوا أكثر الامم اشتغالا بالحرب والفتح والاستعمار ؟

هذا صحيح ، الا أن الاسلام أحاط كل هذه الامور بما يخفف من ويلاتها ، ويفعل فى ابطالها متى اقتضت التطورات البشرية ابطالها، وللقارىء أن يراجع ما كتبناه هنا فى فصل الاسترقاق والحرب والاستعمار لدى المسلمين فى قسم الرد على الشبهات .

ونكرر هنا قولنا أن الاسلام أمر فى الحرب بعدم الاسراف فى اراقة الدماء ، وبعدم الاجهاز على جريح ، وبعدم مطاردة المهزوم ، وبقبول أوهى المحاولات وأكذبها للخلاص من القتل ، كمن يلقى السلم والسيف يهوى الي عنقه .

وراعى الاسلام فى ضرب الجزى مصلحة المقهورين، حتي أن أمما دخلت تحت حماية المسلمين طواعية هربا من الضرائب الفادحة التي كانت تكلفهم بها حكوماتهم ، وللتمتع بنعمة العدالة الاسلامية . وهذا أغرب ما سمع عن الفاتحين القدماء والمحدثين، (راجع كتاب المنازعة بين العلم والدين للعلامة درابر المدرس بجامعة نيويورك) .

أما فيما عدا هذه الامور التى قضى بها الوجود الاجتماعى العام، فان الاسلام قرر لشريعته العدل المطلق والمساواة التى ليس وراءها مذهب ، بصرف النظر عن الالوان والاجناس والاديان والمراتب الاجتماعية، فانه لم يعتد فى سبيل ذلك لا بطبقات ولا بطوائف ولا بأى امتياز متنزل من أى اعتبار كان .

شريعة الاسلام فى القرآن ، وهى فى الجملة أصول أولية من العدل والمساواة على اطلاقهما، وقد تركت لاولي البصر تقدير الحقوق وتحديد التبعات ، وتقرير العقوبات ، (الا فى مواطن معدودة سنأتى عليها) . وقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم فى حوادث قضاء حفظته السنة الصحيحة، وجاء الائمة بعده فقضوا بأمور أخرى لم تكن قد وقعت على عهده صلى الله عليه وسلم، وقد راعى جميعهم فيما قضوا به العدل المطلق والمساواة الكاملة ، فجاءت مذاهبهم أعدل ما عرفه البشر الى اليوم . وقد أطلق الشارع حق النظر فى الشريعة لكل انسان حتي من لا يقبل منهم النظر فى أمثال هذه الامور لدى الامم كافة: كالارقاء ومن فى حكمهم . فتكلم كل قادر على الفهم والاستنباط فى هذه الشؤون واعتبر كلامه اما اجتهادا مطلقا منه ، أو اجتهادا فى مذهب من المذاهب المقررة ، حتي لا تستطيع أن تأتى بقول حديث من أقوال المشترعين المعاصرين لنا لا يكون قد سبقهم اليه امام من الائمة أو عالم من علماء المسلمين . فاذا أريد أن يعمل من هذه الاقوال قانون عام أمكن عمله على حال أكمل من حال كل قانون فى الارض ، ويكون قابلا للتطور الي ما لا حد له ، لان الاسلام لم يضع للاجتهاد حدا ، ولم

يعين له أهلا، ولم يحدد له زمنا ، ولكنه ترك بابه مفتوحا ليسع جميع التطورات العقلية التى تدخل فيها العقول فى كل زمان ومكان ، وحتى لا يكون للمسلمين عذر فى تركه والتعويل على الشرائع الاخرى .

هذا من ناحية الاصول الاولية، التي أقيم عليها صرح الشريعة الاسلامية ؛ فهل راعى المشترعون الاسلاميون هذه الاصول ، وهل أساغها الناس فى تلك العصور وتغذوها على أكمل الوجوه ؟ نحن مضطرون لتقديم هذه الاسئلة ، لان تنفيذ مقتضيات العدل المطلق والمساواة الكاملة ، لم تنضج له الي اليوم أرقى أمم الارض من اللاتى نصبن أنفسهن أوصياء على العالمين ، فهل تنفذه أمة فى أول عهدها بالاجتماع، وتقوم بحقه فى الحدود التى نعرفها نحن لها اليوم ؟

نعم نفذته الامة الاسلامية وقامت بحقه طوال عهد قوتها واليك طرفا من سيرتها فى ذلك :

شكا يهودى عليا بن أبي طالب الي عمر فى خلافته ، وأنت خبير بمن هو على ، فلما مثلا بين يدى أمير المؤمنين نظر الى على وقال له : اجلس يا أبا الحسن . فظهرت آثار من الغضب على أسارير وجه على . فقال له عمر : أكرهت ياعلى أن يكون خصمك يهوديا وأن تمثل واياه أمام القضاء ؟ فقال على : لا ، ولكنى غضبت لانك لم تسوبينى وبينه بأن كنيتنى فقلت يا أبا الحسن (والتكنية تعظيم) .

أنظر الي مبلغ فهم المسلمين الاولين لمعنى العدل حتى عد على بن أبي طالب تكنيته رفعا له على خصمه ، وهذا فى نظره ضد المساواة التي أمر بها الاسلام . وانظر فوق هذا الى انه غضب لان غيره عدا

على العدل ولوفى تمييزه هو نفسه عن غيره ، وهــذا غاية مايعرف فى تضامن أمة للوصول الي المثل الاعلى فى كل شأن .

وحدث أن ولدا لعمرو بن العاص القائد المشهور فاتح مصر وواليها على عهد عمر بن الخطاب ، ضرب رجلا ظالما فأقسم المجنى عليه ليشكونه لامير المؤمنين ، فبينما كان الخليفة مع خاصته وعمرو بن العاص وابنه معهم فى المسجد فى موسم الحج ، اذا بهــذا الرجل يقوم فيقول : ياأمير المؤمنين أن هذا ، وأشار الي بن عمرو ، ضربنى وقال اذهب فأنا ابن الاكرمين . فنظر عمر الي عمرو وقال له : متي امتلكتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ثم التفت الى الشاكى وناوله درته وقال له اضرب بها ابن الاكرمين كما ضربك ، ففعل .

تأمل فى هــذا العدل الذى يضمن حق رجل من السوقة ضد أمير من أمراء العرب ، وابن فاتح أعظم بلاد العالم غنى ، وأبعــدها فى الممالك شهرة .

وتقاول أبوذر الغفاري وعبد زنجى فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، فاحتد عليه وقال له : ياابن السوداء فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « طف الصاع طف الصاع (مرتين تهويلا للامر) ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » .
فوضع عند ذلك أبو ذر خده على الارض وقال للاسود : قم فطأ على خدى (تكفيراً عن ذنبه) .

اقرأ هذا واذكر أن العالم كافة يعتبرون السود الى اليوم فى مستوى القردة ، وأشــدما يكونون عليه هوانا فى بلاد المتمدنين أنفسهم .

وعلى ذكر العبيد أقول أتعلم أن فى الارض أمة تقتل الحر بالعبد ؟
لا ، ولا فى هذا القرن حيث بلغ الشعور بالمساواة حداً بعيداً .
ولكن الاسلام قرر فى شريعته أن يقتل الحر بالعبد اذا قتله عمداً .
فأنا اذا حشرت للقارىء كل آيات البيان لاستنزل اعجابه بهذا السمو
فقد أرانى مقصراً حيال هذا الامر الخطير .

ثم أتعلم ان أهل دين يقتلون أخا مؤمناً منهم بكافر ؟
لا والله الا فى شريعة الاسلام

ان أصدق مايظهر به الانسان من مبلغ احترامه للعدل والمساواة
وقت احتدام غضبه ، وتبيغ دمه ، دفاعا عن حياته وذوداً عن كرامته ،
وأصدق ماتظهر به الامة من ذلك وقت الحرب والدفاع عن الحوزة ،
وبخاصة ضد خصوم من أهل الجاهلية الجهلاء لايعرفون للرحمة معنى ،
ولايقيمون للانسانية وزناً . فاتل شريعة الاسلام وتأمل الي أى حد
تأمر أهلها باتباع سنة العدل حتي فى هذه المواطن التى تغلى فيها الدماء
بالسخائم ، وتطيش فيها الاحلام وسط صليل الصوارم فقال تعالي :
« ولايجرمنكم شنآن قوم (أى ولاتحملنكم عداوتكم لهم) أن
صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » وقال : « ولايجرمنكم
شنآن قوم على أن لاتعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله
ان الله خبير بما تعملون » وقال : وقاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا
ان الله لايحب المعتدين »

وفى الكتاب الكريم من أمثال هذه الآيات العدد الوفير . وقد
سبق ان ذكرنا فى فصل مضي ان بعض أصحاب رسول الله صلى الله

عليه وسلم قتل رجلا فى الحرب ألقى اليه السلم ، فلما بلغه ذلك غضب غضباً شديداً وقال اللهم انى أبرأ اليك مما فعل فلان . فقال له صاحبه ان هذه منه خدعة يارسول الله . فقال ولوكانت كذلك فانا أمرنا أن نأخذ بالظاهر .

فالاخذ بالظاهر هذا مبدأ أول ماجعله أصلا من أصول الشريعة ، وأساساً من أسس المعاملات ، هو الاسلام . ولقد ساكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من المنافقين التحفوا الاسلام واستبطنوا الكفر ، فكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ، وينقلون الي الكافرين أخبارهم وحركات جنودهم ، ويخرجون معهم للقتال فينهزمون ليجروهم معهم فيتعقبهم العدو ويفتك بهم . فاحترم النبي صلى الله عليه وسلم ظاهر ايمانهم ، وصبر هو وأصحابه على أذاهم ، وهم قادرون على إبادتهم ، وهذا مالم يظهر أثره فى التشريع الدستورى ألا فى القرن التاسع عشر حيث استقرت الدساتير واحترمت المذاهب السياسية المختلفة ، وتركت الحرية لكل قبيل يعمل فى دائرة القانون العام ، ومنع التحرى عن سرائر الناس للايقاع بهم .

اننا نكتب هذا ونحن نتهزز طربا من هذه الآيات الباهرة ، ونتساءل هل يمكن أن يكون لهذه الشريعة التى تعتبر المثل الاعلى للعدل من طريق غير الوحى ؟ وهل يستطيع رجل نشأ فى جزيرة العرب ، بيئة الفخر بالآباء ، واحتقار الضعفاء ، والعدوان على الحقوق ، وعبادة القوة والاقوياء ؛ أن يأتى بمثل هذا العدل فى ذلك العهد البعيد عنا ؟

واذا كان أفلاطون وأرسطو أميرا الفلسفة قررا وقرر من جاء بعدهم حرمان أهل الحرف والصنائع وأصحاب المهن والارقاء من الحقوق المدنية كافة أفلا يعتبر الاعتداد بهم الى هذا الجد سموا أليس وراءه مذهب؟

يقول قائل انك تقول ان شريعة الاسلام أصول عامة تصلح لكل زمان ومكان، ولكنا نرى القرآن قد نص على عقوبات مختلفة على الجرائم معينة كالزنا والسرقة وشرب الخمر والقذف والفساد فى الارض ، فكيف توفقون بين قولكم وهذه النصوص ؟

الحدود المقررة على بعض الجرائم فى القرآن

قلنا فى نهاية الفصل السابق أن فى الكتاب الكريم جرائم معينة محدداً لها عقوبات مقررة، كالزنى والقذف والسكر والسرقة والفساد فى الارض ، فالكتاب والسنة الصحيحة يقرران على مرتكب الجريمة الاولي ان كان محصنا عقوبة الرجم ، وعلى مقترف الثانية مئة جلدة ، وعلى مجترم الثالثة ثمانين جلدة ، وعلى جانى الرابعة قطع اليد ، وعلى فاعل الخامسة أن تقطع يده ورجله من خلاف أو ينفى من الارض ، فهذه العقوبات تصادف اليوم اعتراضات من جانب المشترعين، وقد أباحوا هم الزنى والسكر وقرروا على القذف والسرقة والفساد فى الارض عقوبات تناسب خطرها . ويفوت هؤلاء النقدة أمر خطير وهو أن الاسلام دين اصلاح اجتماعى وله برنامج معين فيه ، وهو يرمى الي تأليف مجتمع خال من الشرور ما أمكن ، ويسود فيه التكافل فى الحياة ، والترافد حيال صعوباتها، الي أقصي حد تطيقه الفطرة البشرية .

وفى الارض مذاهب اصلاحيــة تــكاد لاتحصى ، فما الاديان الموجودة ، وماجمهورية أفلاطون ، ولاكتاب السياسة لارسطو ، وماوضعه أبيقور وذينون وغيرهم من الاقدمين ، ومانشره كارل ماركس ومن أتى بعده الي لينين . . الخ الخ . إلا مذاهب اجتماعية قصد ذووها احداث اصلاح عمرانى على موجبها . فنها ماطبقت على بعض الشعوب وعاشت دهرا ثم اضمحلت وزالت ، ومنها ماحبطت تاركة وراءها دخانا كثيفا وحمما . وبعضها لم يطبق الي اليوم على أمة من الامم ويجاهد للحصول على الفوز بأصوات الناخبين ، كمذهب حزب العمال فى انجلترة ، والهتلرية فى ألمانيا ، وغيرهامن المذاهب الاشتراكية حتي الفوضوية . فاذا كان الشيء تعرف قيمته من أثره فانظر الي كل ماذكرته لك من المذاهب الاجتماعية وتأمل هل من بينها مايعادل مذهب الاسلام فى الاصلاح الاجتماعى ، أويقرب منــه فى سمو أغراضه ، وبعد غاياته ، واستقامة مسالــكه ، وصحة أصوله ، وفى تأديته للجماعات التي أخذت به الي زعامة العالم فى زمن لا يكاد يكفى لتطور فرد فما ظنك بأمــة ، وفى تعديته ماحصله من النور العقلى والعلمى ، والتقدم الصناعى والفنى ، الى الامم كافة ، حتى كان سبباً فى حفظ التراث العقلى العالمى من التلاشى ، بل كان داعياً لانعاش أوربا بعد أن قضت فى خدرها وجمودها الف سنة ، وأوجب لذويه سلطان الارض ، فقاموا به على سنن من العدل لاتزال تترطب بذكرها الالسنة ، وتتعطر بأريجها الاندية ، وتتخذ دليلا محسوساً على أن الانسان يستطيع أن يوفق بين الدين الذى ليس وراء غاياته القصوى مذهب ، وبين المدنية التي ليس عن فواتها

مهرب ، وأن يؤاخى بين السلطان الذى ليس فوقه مصعد ، وبين العدل الذي ليس بعده مطمح ؟

فالاسلام كما ترى جاء بمذهب فى الاصلاح الاجتماعى ونجح فى تطبيقه ، وكان من أثره ماراأيت مما لاتزال الامم الآخذة به تعمل فيه ،جهلا منها به ،معاول الهدم والتحطيم ، وتكاد لاتسقط منه ركنا ، وستعود اليه بعد أن تصح من داء هذه الفتنة ، أوتصحو من خدر الجهل الذى هى فيه ،معاصاة له ، وخروجا على أصوله .

فهل تعدى هذا الدين فيما قرره من استفظاع الجرائم التي ذكرناها ، وترتيبه عليها العقوبات الرادعة ، الحق الطبيعى الذى للافراد والجماعات ؟ وهل قصر فى اتخاذ الاحتياطات لها من جميع الانواع ؟

أى مشترع أوفيلسوف فى الارض لايرى فى الزنى جريمة من أبشع الجرائم ، لعدوانها على الشرف والكرامة والاخلاق أكبر عدوان ، فالاسلام قرر أن يضرب آتية إن لم يكن محصنا مئة جلدة ، وأن يرجم ان كان من أهل الاحصان .

هذه عقوبة من الشدة بمكان بعيد ، ولكن أرأيت كيف أحاطها الشرع الاسلامى بما يجعلها شكلية ردعية أكثر منها عقوبة حقيقية ؟ فقد تطلب لاثبات الزنى أربعة شهود عدول يقررون أنهم رأوا الفعل رأى العين فى تفصيل لانستطيع الخوض فيه ، مما يجعل إثباته قريبا من المستحيل ، وزاد على هذا بأن أحداً لواتهم اثنين بوقوع هذه الجريمة منهما ، طالبته الحكومة باحضار أربعة شهود عدول ، فان عجز عن إحضارهم عد قاذفا وضرب مئة جلدة .

وقد أوصى الشارع بقبول أوهى المعاذير فى دفع هذه التهمة . فقد حدث أن رجلا جاء الي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله انى زنيت . فوقع اعترافه وقعاً شديداً من النبي، فأخذ يلقنه الشبهات التى تدفع عنه الحد ، فيقول له لعلك قبلت ، لعلك عانقت ، لعلك فاخذت ، فلم يزدد الرجل الا إصراراً ، فلم يسع النبي صلى الله عليه وسلم الا أن يأمر باقامة الحد عليه وهو كاره .

وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم قوله : «ادرأوا الحدود بالشبهات» ، و « ادفعوا الحدود ماوجدتم لها مدفعاً »

وقد سار اتباعه من بعده على سنته؛ فحدث يوما أن رأى عمر بن الخطاب فى أيام خلافته رجلا وامرأة على فاحشة ، فلم يستطع؛ على شدته وحرصه على اقامة حدود الله؛ أن يبت فى هذا الامر بنفسه؛ فجمع الناس وقام فيهم خطيباً وقال : ماقولكم أيها الناس لو رأى أمير المؤمنين رجلا وامرأة على فاحشة ؟ فقام على بن أبى طالب وأجابه بقوله : يأتى أمير المؤمنين بأربعة شهداء أو يجلد حد القاذف مئة جلدة . فسكت عمر ولم يعمل شيئا .

الي هذا الحد بلغ نظر المسلمين الى هذه العقوبة ؛ فهى شكلية ردعية كما قلنا أكثر مما هى حقيقية .

وأما قطع اليد على السرقة؛ فان الاصلاح الاجتماعى الذى أوجده النبي صلى الله عليه وسلم كان من أصوله ان يقوم المسلمون على مبدأ تعاونى محكم البناء ، ليس فى احدى نواحيه ضعف . وقد سلك لذلك مسلكين؛ (أحدهما) أن يؤخذ من رؤوس الاموال نحو اثنين ونصف

فى المئه للفقراء ومن فى حكمهم ، وللاعمال العامة التي تعود عليهم بالخير واليسر ، فكان فى بيت المال رصيد خاص بذوى الحاجة، ومن تدفع بهم الضرورة الي الحدود القصوى، وكانت الحكومة مسئولة عن وصول الحاجة ببعض الناس الى هذه الحدود. و(ثانيهما) كان على كل فرد من افراد المسلمين واجب حتم، وهو العيش مع الجيران على حالة تكافل وتعاضد ، بحيث يرفد غنيهم فقيرهم، والا كان عليه وزر المقصر المستأثر . فأكثر النبي صلى الله عليه وسلم من الايصاء بالجار حتى قال : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » . وقد جرى المسلمون على هذا الاصل حتي وصلوا الي حدود يضرب بها الامثال فى التعاون بين الفقراء والاغنياء غصت بها تواريخهم . فقد روى حجة الاسلام الغزالى أن رجلا كان عند عبدالله بن عباس وغلام له يذبح شاة . فقال بن عباس ياغلام لاتنس جارنا اليهودى ، ثم عاد فكررها ثانية وثالثة . فقال له الرجل كم تقول ذلك ياابن عباس ؟ فقال والله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مازال يوصينا بالجار حتي ظننا انه سيورثه .

أنظر الى هذا الاثر من ناحية انه تشديد فى مراعاة حقوق الجوار، ولاتنس أن تنظر اليه من ناحية دلالته على مبلغ تسامح المسلمين مع الاجانب عن ملتهم ، حتى انهم لم يفرقوا بين الناس كافة فى حقوق الجوار .

ففى نظام اجتماعى تعاونى من هذا الطراز حيث يسود التكافل والترافد ، ويمكن فيه استصراخ الحكومة المكلفة بدفع الحاجات

عن المعوزين ، كيف لا يعامل العابث بأموال الناس أقسى معاملة ، بل وكيف لا تقطع يده حتي يكف سواه عن مثل عمله الذى لا يقصد به الا محض الايذاء وازعاج الامن ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

وكيف لا يجلد رجل تسمح له نفسه الشريرة أن يشرب الخمر حتي يفقد الرشد، ثم يخرج الي الشوارع والحارات يخيف الاطفال والنساء وربما ضربهم ؟ وكيف لا يجلد كذلك رجل يتهم أهل الاحصان بالفسق، غير حاسب لما يبتنى على عمله هذا من حل روابط الاسر ، وهدم أركان البيوت ، ثم يعجز عن الاتيان بأربعة شهداء عدول يعززون بشهادتهم مايقول ؟

والذين يفسدون فى الارض باضرام نيران الفتن ، وقلب النظم ، وازعاج الامن، كيف لا تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو لا ينفون من الارض ؟

هنا أنظر رحمة الشارع فقد قدم قطع اليد والرجل استفظاعا لهذه الجنايات التي تضيع فيها أرواح بريئة ، ثم فتح للحكومة باب الرحمة بتخيرها بين هذه العقوبة والنفى .

نعود الى الجلد فنقول : ليس فى هذه العقوبة مايؤاخذ عليه ، فهى معمول بها فى انجلترة وغيرها ، وفى السجون المصرية أيضاً .

ولابد لنا من التنويه هنا بحال الشهود ، فان القضاء الاسلامى لا يقبل ، وبخاصة فى الحدود . شهادة شهود يجمعهم المتقاضون من هنا وهناك ، فيشترط فيهم أن يكونوا من أهل العدالة ، وأن يشهد

شهود آخرون بأنهم أهل للشهادة . وفى الحادثة الآتية علم بما يجب أن يكون الشاهد عليه فى الاسلام من الصفات، وبما كان عليه هذا الامر عند أسلافنا الاولين من الخطورة . أدخل رجل على عمر بن الخطاب فى عهد خلافته ليشهد فى قضية ، فطلب منه أن يحضر له من يشهد بأنه عدل ، ففعل . فلما مثل شاهده بين يديه قال له الخليفة أتعرف فلانا حق المعرفة ؟ فقال الرجل نعم ياأمير المؤمنين . فقال له أأنت جاره صباح مساء لتعرف مدخله ومخرجه ؟ فقال الشاهد لا . فسأله عمر أعاملته بالدرهم والدينار الذى يستبين به ورع الرجل ؟ فقال المزكى لا . فقال له الفاروق أصاحبته فى السفر الذى يتضح فيه ماهو عليه من مكارم الاخلاق ؟ فقال له الرجل لا . فقال له عمر لعلك رأيته قائما يصلى فى المسجد يهمهم بالقرآن ؟ فقال الشاهد إى والله ياأمير المؤمنين . فقال له عمر اذهب فلست تعرفه .

فالمسلمون الذين قاموا على هذه النظم المحكمة قد تأدوا فى عشرات من السنين الي الحصول على زعامة العالم كافة فى العلوم والفنون والسياسة ، ومدوا ما لكهم الي بقاع لم يطأها عـلم غير علمهم الي اليوم ، فاختر لنفسك الآن مايحلو : أتود أن يكون لامتك ملك لم ينبغ لامة قبلها ، وزعامة العالم فى العلم والسياسة وفيها هذه الحدود . أم تؤثر أن لا يكون لامتك شأن يذكر بين الامم ، ولا تكون فى قوانينها مثل هذه العقوبات ؟

حكم الآيات المتشابهة فى القرآن

آخر مطالب للاوساط من مطالبهم التي جمعناها وتكلمنا فيها هو أن يكون الدين لبنا سائغا ليس فيه مايحتاج لتأويل، ولاماية تعصى

على التعليل .

هذا مطلب لاينال من دين يصل بين الناس وبين العالم الروحانى المشحون بما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، عالم الحقائق الاولية ، عالم الاصول الخالدة ، عالم القوى العلوية ، عالم الاطلاق المحض . فاذا قارنت بين مدركات عقلك وبين حقائق هذا العالم ، تحققت أن ايتاءك بقليل من العلم عن شؤونه يعوزه الشيء الكثير من التكلف والمحاولات ، ومن صرف الالفاظ عن ظواهر مدلولاتها ، ومن تشبيه أمر بأمر لم يمت اليه بصلة ، ولا هو من جنسه مادة ووجودا .

أرأيت لوعهد اليك أن تعبر عن النور لمكفوف البصر ، فاذا كنت فاعلا غير الحوم حول الموضوع بما يدركه صاحبك بحواسه الاخرى ، والنسبة بين مدركاتها والمدركات البصرية منقطعة ، فتضطر للتشبيه البعيد ، وللقياس مع الفارق ، ولجميع العالم التي يأخذها المناطقة على أهل التعبير . فاذا نظرت الي ماقلت وماقررت ، رأيت انك قد أتيت بعبارات تحتمل الخوض فيها ، وتصل بالخائض الي كل غاية الا الغاية التي رميت اليها .

هذا إذا عهد اليك هذا الامر لمكفوف من درجات العقلية ، فما ظنك لو كان من طبقة العامة الذين لايدركون الفروق بين مدلولات الالفاظ ، ولا الحدود بين مؤديات المعانى ، ولا الاطلاق والتقييد ، ولا اللازم والملزوم ، الي غير ذلك من ضرورات التعبير؟

ألا تعلم أن الناس سوادهم الاعظم عوام ، وأن هؤلاء مادة الامم

وأساسها البعيد الغور، وأن الدين أكثر مايتوجه اليهم بالمواعظ، وأشد مايتوعدهم بالمثلات، وأكبر مايهيجهم الي طلب المجد، ويثيرهم الى قلب النظم، فهو من هذه الناحية فى حاجة الى أن يفتح لهم الي عالم الملكوت يطلون منها على خيال مما فيه من قوى الحكم والتقدير، وشؤون التكوين والتدبير، ونافذة أخرى الى عالم الحياة الخالدة يشرفون منها على طيف مما ينتظر الناس فى تلك الدار، من ثواب على فضيلة، أوجزاء على رذيلة، فهل تريد أن يكون ذلك الكشف لهم على ماعليه حقيقة الحال، وأقوى العقول وأرقاها لا تستطيع أن تتطاول اليها، فاظنك بالدهماء ومنهم الذى لايدرك مافوق مأكله ومشربه، ومنهم الذى ان رأى غير مايعقله تفرمنه وازدرى بالقائلين به؟ قال عليه الصلاة والسلام: « خاطبوا الناس بما يعقلون أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ »

فالدين أحوج المعقولات البشرية الي استخدام المجازات والكنايات والتشبيهات البعيدة، والقياسات مع أكبر الفوارق، وأشدها شسوعا.

إلا أن الاسلام، وهو الدين العام الخالد قد وضع لهذا الامر نظاما، وحد للعقل فيه حدوداً، فلم يغمط الدين حقه فى استعمال الالفاظ الموضوعة لتلك الشؤون العلوية، ولم يكلف العقل أن يصير أسير هذه التعبيرات البعيدة عن مؤدياتها كل البعد، فيجعلها لنفسه عقيدة صورية ان سلم بها الناس فى جيل شذ عنها أبناؤهم فى جيل آخر، فقرر هذا الاصل الاصيل وهو: « وهو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، فأما الذين فى قلوبهم

زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، ومايعلم تأويله الا الله ؛ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ومايذكر الا أولو الالباب »

ومعنى هذا أن فى القرآن آيات محكمات الوضع ، واضحات المعانى ، لايستعصى فهمهن على انسان ، ولايحتجن الى صرف ألفاظهن عن ظواهرها ، هن أصل الكتاب واسسه ، وعليهن يقوم صرح هذا الدين فى المعتقدات والعبادات والمعاملات ، وفيه غير هذه آيات متشابهات ، أى محتملات لمعان كثيرة لاتتضح مقاصدها لكونها مجملة أوغير موافقة للظاهر ؛ فهذه فى حاجة إلى تأويل ، وهو لايوصل الي علم صحيح للعلة التي ذكرناها آنفا ، فأما الذين أشربت قلوبهم الضلالة فيتعلقون بظاهر ألفاظها ، أويتناولونها بتأويل باطل ، طلباً لفتنة الناس بالتشكيك أو رجاء ان يأولوه على ماتشتهى اهواؤهم ، والحال انه لايعلم تأويله إلا الله ، واما المتمكنون من العلم فيقولون آمنا بالكتاب كله ، محكمه ومتشابهه ، ومايتذكر الضرورة التي تقضى بهذه المحاولات إلا اصحاب العقول .

فالاسلام بهذه الآية قرر بنص لايحتمل التأويل ، انه لا يطالب الناس الا بما اتى به محكم الوضع ، جلي المعانى ، لاتعترك فيه العقول ، ولاتحار فى كنهه الافهام . واما مالا يدركه العقل ، وماتقصر عن بيانه الالفاظ ، وماتذهب المدارك فيه كل مذهب ، فالناس غير مطالبين به . وزاد على ذلك فقرر انه لايحاول تأويل تلك الآيات الا اهل الزيغ ، فانها تتعالي حتي عن التأويل .

فهل معنى هذا انه حرم التأويل على وجه الاطلاق ؟

لا ، فانه قد يكون حتما لا مناص منه متي تعارض نصان من الكتاب ، ومتى تعارض نص من الكتاب وعلم صحيح ، فناله من الاول قوله تعالي : «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » وقوله : « يد الله فوق ايديهم » وقوله : « كل شيء هالك الا وجهه » وقوله : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » . فالآية الاولي تنص على انه ليس كمثله شيء نصاً لايحتمل تأويلا ، والآيات الاخر يدل ظاهرها على ان له وجها ويدا وعينا ، وهو مالا يثلج عليه الصدر ، ولا يتفق وحكم العقل ، وقد قضت به محسنات التعبير ليس الا ، فهذه يصار فيها الى التأويل ، وقد جرى على ذلك جميع المسلمين الا طائفة لا يعتد بها دعيت بالمشبهة . والاسلام يطلق الحرية لكل عاقل ، ولا يسد الطريق فى وجه باحث .

واما النوع الثانى وهو ان يتعارض ظاهر النص مع حكم العقل والعلم ، فهو أجل اصل اتى به هذا الدين ، وامنع وقاية تحميه شر الجمود الذى وقع فيه اهل الاديان كافة ، وله اكبر الاثر فى بقائه ديناً عاماً خالداً ، والا طغت عليه تيارات العلوم ، وتمردت عليه قويات العقول ، فوقفته عند حد وسارت قدما تكشف المجاهيل ، وتقرر المعاليم ، حرة طليقة لا يقيدها شيء ، تاركة الدين قاصراً على مبان اقيمت له ، فيها رجال لا تمدهم منها فى شيء ، الى ان يعصف عاصف جديد من انقلاب وشيك فلا يبقى من آثار الدين شيئا .

ولكن من اية الجهات تستطيع العلوم ان تطغى على الاسلام ، ومن اية النواحى تثور العقول عليه ؟ أمن مثل قول الكتاب : «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » ، وقوله .

« والارض بعد ذلك دحاها » أى بسطها ، وقوله . « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » ، وقوله : « سبع سماوات طباقا » الخ الخ ؟ كل هذه الآيات تتناولها القاعدة الاصولية التى انفرد بها هذا الدين وهى : انه لو تعارض نص وعقل أو علم صحيح ، أول النص وأخذ بحكم العقل أو العلم . وقد أول آباؤنا من هذه الآيات ما خالف عقولهم أو ناقض العلم الصحيح . ونحن نجرى على سننهم فنؤول ما يخالف عقولنا منها .

جرى المسلمون الاولون على هذا السمت فكان تطورهم العلمى يمدهم بالمعلومات ، وعلماؤهم يؤولون لهم الآيات حتى تآخى العلم والدين ، وسار كفرسى رهان لا يسبق أحدهما الآخر ، فلم ينقسم الناس الى فريقين ، فريق للدين يقل كل يوم عدداً ، وفريق للمدنية يزداد كل يوم مدداً ، ولكن كانوا فى وحدة لا انفصام لها . فبلغوا الى مالم تبلغه أمة قبلهم من بسطتى الدنيا والدين .

حظ العامة من الاسلام

العامة وان كانوا أكثر الطبقات عديداً ، إلا أنهم لا يستطيعون أن يستقلوا بنظر ، ولا أن يؤتمنوا على تفكير ، لذلك كانوا فى كل ملة وفى ملتنا هذه اتباعا للخاصة من العلماء العاملين ، والاوساط المفكرين ، فهم لا يقتضون من بحثنا هذا أكثر من هذه السطور . وكل مالهم فى أعناقنا من الحقوق أن نحسن تعليمهم ، ونعمل على نقلهم مما هم فيه الي مافوق درجتهم من الدرجات ، فان الاسلام لم يقسم الناس الي طبقات ، ولكنه جعل معارج الترقي شائعة بين كل المستعدين للعروج

عليها ، فارتقى الي أرفع مقاوم العلم والفلسفة أفرادمن العامة فأصبحوا لملوكهم أئمة ؛ ولم يستثن الاسلام حتي العبيد السود فكان منهم علماء أعلام ؛ ووزراء عظام ؛ بل وملوك فخام .

فى المقالة التالية ننظر فى حظ العالمين كلهم على اختلاف أديانهم ونحلهم من هذا الدين ، فهل أصابهم منه شر مستطير ، وبلاء كبير ، كما يحدث من آثار كل انقلاب اجتماعى خطير فى بقعة من بقاع الارض ، أم نالهم خير عظيم وانتقال كريم ، كما هو شأن كل انقلاب شريف الغايات والمقاصد فى الارض ؟

أثر الاسلام فى العالم كافة

ماذا كان عليه العالم على عهد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم

لامشاحة فى أن كل انقلاب اجتماعي يحدث فى أمة من الامم لاتقتصر آثاره عليها ، فكما يفضى فيها الي زوال عهد قديم بما كان عليه من دين وتقاليد وموروثات وأسر مقدسة وبيوتات شريفة ، كذلك يفضى فى مجاوراتها من الامم الى سقوط بعضها وفناء البعض الآخر فى جثمانها ، وتمتد الصدمة التي يحدثها الي أبعد مما يتخيله الراؤون ، حتى قد يعم الامم كلها على نسب مختلفة .

فلا يصح أن ينظر والحالة هذه الى ماأدى اليه الانقلاب من حوادث جسام فحسب ، ولكن الي الروح العام الذى أوجده فى العالم هل هو روح شغب واضطراب وتدهور ، أم روح نظام وطمأنينة وترق ؟

فلننظر الآن فى نتائج الانقلاب الذى أحدثه الاسلام وماأصاب العالم منه ، وفى الروح العام الذى أوجده فى الارض . ولاسبيل لنا إلى

ذلك الا بعد معرفة ما كان عليه العالم على عهده ودُعى هو للتأثير فيه .
وقد رأينا أن ندع الكلام فى هذا الموطن لمستشرق عليم من الاجانب، قام بهذا الامر خير قيام فى مقدمة فهرست وضعه لآيات القرآن باللغة الفرنسية هو المسيو (جول لابوم) قال ماترجمته الحرفية :

« لاجل أن يفهم الانسان تمام الفهم أى دعوة من الدعوات يلزمه أولا الالمام بحال الداعى فى ذاته ، ولاجل أن يقدر قدر دعوته يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التى وجه همته للتأثير فيها . هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التي خصصنا بها المشترع العربى مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الاسلامية .

«حوالي ميلاد محمد فى القرن السادس الميلادى كان جو العالم ملبداً بغيوم الاضطرابات والفتن . فكان شعب (الويزيغو) الآريين فى اسبانيا وفرنسا الجنوبية يصارلون الملك (كلوفيس) وأولاده الكاثوليكيين . فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة أمبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو (جوستنيان)، ثم اجبروا الي الدخول معه فى حرب جديدة ، تخلصا من سلطة القواد الذين جاؤوهم بتلك المساعدة . فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين ، لامجرد ولاء المساعدين المنجدين .

« أما فى فرنسا نفسها فكان أولاد كلوفيس هذا متغادرين متسافكين ؛ وكانت الحروب التي شبت بين المملكة الويزيغوتية (برنهو) والمملكة الفرنكية (فريد يجوند) تهيىء للتاريخ أشد الصحائف إثارة للأسى والكمد .

« أما فى انجلترة فكان الانجلو ينازعون الساكسونيين الارض التى احتلوها واستعبدوا فيها ذرية (كيميريس) وهم أقدم المغبرين على تلك الجزيرة التى تتطلع اليوم للوقوف فى مقدمة الامم علماً وصناعة وقوة ، وهى التي كانت فى ذلك العهد مجالا للقوة الوحشية السائدة فى تلك الغياهب الحالكة

« أما فى ايطاليا فكان اسم الرومان، وهو ذلك الاسم الشامخ، قد فقد قيمته القديمة ، وكانت رومية وهى الشظية الاخيرة ، أو رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم، (يعنى مملكة الرومان)، فى حالة تململها من استحالة أمرها الى مركز دينى بسيط ترتج وتضطرب كلما ألم بها طائف من ذكر عظمتها القديمة أيام كانت مركزدينياً أصلياً . فكانت تهيىء نفسها لان تكون مركز البابوية ، وهى تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة (شرلمانى) أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان . ولكنها مع ذلك لم يسعها إلا احتمال نير (الهيروليين) و (الاستروغوتيين) وبراطرة المملكة الرومانية واللومبارديين الذين تداولوا السلطة عليها تداولا .

« أما المملكة اليونانية فكانت قد نسيت مجدها القديم فصارت تابعة لمملكة الرومانيين الشرقية مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء . وكان شرق أوروبا مقلقاً جنوبها من أول مصاب نهر الرن من جهة الشرق . فكان الاسكندينافيون والنورفيجيون والدانيماركيون يتزاحمون فى الطريق الذى سلكه الغوتيون والهونيون الذين احتلوا تراقيا ومقدونيا ولومبارديا وايطاليا

سواء بالقوة أو بالخديعة .

« فى ذلك الوقت بدأ ظهور الاتراك من أعماق آسيا الصغرى وهى تلك الامة التى قصرت فيما بعد مملكة اليونان على أسوار القسطنطينية .

« التصوير البديع الذى جادت به قريحة المسيورينان لبيان مركز الامبراطورية الرومانية فى القرن الاول من التاريخ المسيحى لاعلاقة له بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوروبا فى القرن السادس . تلك كانت مفاسد قيصرية مختمرة ، أما هذه فوحشية حربية تلعب بالارواح وتتمرغ فى الاوحال .

« أما آسيا فلم تكن أهدأ بالا من أوروبا فى شىء ، فمملكة تيبت والهند التي اقتبست منها الامم السائدة فى أوروبا الآن قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها والصين التى تعد مسألتها أغرب المسائل السياسية والفلسفية ، وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية . كانت هذه الممالك كلها متمزقة الاحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية .

« أما السفح الشمالي من الهضبة الاسيوية العالية التي هى فى حوزة الروسيا الآن فكانت غير معروفة على الاطلاق .

« أما مملكة الفرس التي كانت أحوالها مرتبطة بأحوال الغرب ، وبخاصة من لدن تجريدة الاسكندر المقدونى ، فكانت مشتبكة فى حرب مع اليونان الرومانيين فى القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية .

« أما فى أفريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم وهم أخلاط من جنود وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلفة دائبين على امتصاص دم مصر ، وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجثة المصبرة عادمة الحس والحراك . وكان هذا شأنهم أيضاً فى الاقاليم الخصبة وقتئذ الواقعة فى الجهات الشمالية من أفريقيا التى انتزعوها من أيدى الفنداليين .

« الخلاصة كان جو العالم الارضى متلبداً بسحب الاضطرابات الوحشيــة فى كل مكان ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير . وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة فى اصلاء نيران الحروب والمعارك ، ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ، ولا يؤثر عليها تأثيراً حاداً ، وان كان وقتياً ، الا شيء واحد ، هو الغنيمة وسلب الامم والشعوب والمدائن والاعيان ورجال الحروب وفقراء الحراثين وبسطاء المتسولين ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق فى بعض صوامع الكهنة ، وبعض الجراثيم الفلسفية التي كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب ، وانتقلت من روح الي روح أخرى بوساطة بعض أصحاب الجرأة من رسل الرقى فى المستقبل لكانت البربرية أسرعت فى خطاها مقودة بغطرسة زعماء البهيمية واستحالت الي وحشية محضة .

« مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الارض لم تصبه لفحة من هذه الحركة ؛ ولكن لم تكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ، وانما كان بسبب موقعهم الجغرافى البعيد عن مضطرب الامم التي

كان يقال انها متمدنة . ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التى ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة فى أوربا الاعن بعد ، وما كان يصلها ذلك اللغط الا غاية فى الضعف والضؤولة ، وكانت تجهل وجود الهند والصين ، فلم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس الامن أخبار الانتصارات والهزائم التي كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سورية الي تبعية براطرة القسطنطينية تبعية اسمية ، أورفع نير تلك التبعية الاسمية عنها . على أن ذلك الوادى الاخير كان يهم بلاد العرب جداً لان أبناءها كانوا يذهبون اليه للتجارة وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطىء الغربى من نهر الفرات وصعدوا يسيراً يسيراً الي بحر قزوين . ومما يشبه المساتير الدينية انها بقيت منفصلة عن مصر التي أغار على جنوبها العرب الرعاة ، ولم ينجلوا عنها تماما الا بعد أن انجلى عنها بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم .

« أما المملكة الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهى بلاد الحبشة . أما الجهة الشماليه من أفريقيا التي أغاروا عليها مرتين ، والتي كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين فكانوا لايحلمون بوجودها . »

ثم قال : قال المسيو كوسان دو برسوفال فى كتابه تاريخ العرب :

« ان المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين ، أما المتبدون منهم فكانوا فى الواقع أحراراً لاسلطة لاحد عليهم

وكان عرب سورية دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة ، وهم ملوك بنى حمير، سيادة وقتية فكانت تعتبر انها تحت سيادة ملوك الفرس ، ولكنها فى الواقع كانت متمتعة بالاستقلال الكامل »

ثم تابع المسيوجول لابوم القول فقال : « ولم يكن العرب أحسن استعداداً من غيرهم لقبول أى دين من الاديان . قال المسيو (دوزى) فى كتابه تاريخ عرب اسبانيا : « كان يوجد على عهد محمد فى بلاد العرب ثلاث ديانات الموسوية والعيسوية والوثنية . فكان اليهود من بين أتباع هذه الاديان أشد الناس تمسكا بدينهم ، وأكثرهم حقداً على مخالفى ملتهم . نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية فى تاريخ العرب الاقدمين ، ولكن ماوجد منه فنسوب الي اليهود وحدهم ، أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية، وكانت هذه الديانة تحتوى على كثير من الخوارق والاسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسى كثير الاستهزاء . أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الاعظم من الامة فكان لكل قبيلة بل وأسرة منهم آلهة خاصة . والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالي، ويعتبرون تلك الآلهة شفعاء فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام، ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان اذ لم يتحقق إخبارهم بالمغيبات، أو لوعولوا على فضحهم عند الاصنام ان قربوا لها ظبية بعد أن نذروا لها نعجة ، وكانوا يسبون أصنامهم اذا لم تنلهم مطالبهم ولم تسعفهم بآمالهم »

وقال المسيو كوسان دوبرسوفال : « من العرب من كانوا يعبدون الكواكب وبخاصة الشمس . فكنانة كانت تدين للقمر وللدبران، وبنولخم وجرهم كانوا يسجدون للمشترى ، وكان الاطفال من بنى عقد يدينون لعطارد ، وبنو طيء ألهوا سهيلا . وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعرى اليمانية ، وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة آرائهم الدينية .

«وقال المسيو كوسان المذكور أيضاً : « كان من العرب من يعتقد بفناء الانسان اذا خلعته المنون من هذا العالم . ومنهم من كان يعتقد بالنشور فى حياة بعد هذه الحياة . فكان هؤلاء الاخيرون اذا مات أحد اقربائهم يذبحون على قبره ناقة ، أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعا، معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بصورة طير يسمونه الهامة أو الصدى، وهو نوع من البوم لا تبرح ترفرف بجانب قبر الميت نائحة ساجعة، تأتيه بأخبار أولاده . فاذا كان الفقيد قتيلا تصيح صداه قائلة (اسقونى) ، ولا تزال تردد هذه الكلمة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه .

قال المسيو لابوم بعد إيراده هاتين العبارتين عن الاستاذين المذكورين: « وكانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر اليها إلا على انهم شعب يكادون لا يجوزون العقبة الاولى من عقبات الاجتماع، لولم تكن الاسرة عندهم بل والقبيلة، (وهى نقطة تلفت النظر)، تهتم اهتماما عظيما بحفظ سلسلة نسبها، ولولم يكن، (وهو أمر أغرب من سابقه)، ادراكهم للقوانين وسعة لغتهم داعياً الي الالتفات بنوع خاص .

ثم قال : « قال المؤلف المحقق الذى اقتبسنا منــه أكثر هذه التفصيلات المتقدمة : « كان العرب مغرمين بشرب الخمر . ويوجد من الشعر مايدل على انهم كانوا يفخرون ويعجبون به وبلعب الميسر ، وكان من عوائدهم أن الرجــل له أن يتزوج ماتسمح له به وسائله المعيشية ، وكان له أن يطلقهن متي شاء هواه . وكانت الارملة تعتبر منْ ضمن ميراث زوجها . ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الاب ، وقد حرم ذلك الاسلام وعــده زواجا ممقوتا . وكان لديهم عادة أفظع من كل ما مر ، وأشد معارضة للطبيعة وهى وأد الاهل لبناتهم أى دفنهن أحياء »

« هذا كله لايشير الي أن العرب لم يكن فيهم أى جرثومة خلقية صالحة ، يمكن تقويمها وتهذيبها ، فقد كانوا يحبون الحرية حباً جماً ، ويمارسون فعائل الكرم وبذل القرى »

« الافراد الذين كانوا تابعين لامم أرقى من الامة العربية ، والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب ، كانوا قليلى العدد جداً ولايظهر انهم كلفوا أنفسهم الدعوة الي ملتهم ، فاليهود الذين كانوا متشبعين بالاثرة على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين ، لايرى منهم الى اليوم خاصية التأثير على غيرهم الا بالخضوع لقوانين الامــة التي يشتغلون تحت ظل حمايتها بالامور المالية . ولئن شوهد أنهم ادخلوا الي ملتهم بعض العرب ، فلم يك ذلك الانتيجة بسيطة لاشتراكهم فى الاساطير التاريخية ، وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الامتين . تلك القرابة يستدل عليها أيضاً بتساويهم فى حب الكسب ، وتآزيهم

فى الاستعداد لعدم الانفة من سلوك أى طريق من الحيل والمكر لنيل كسب أوحطام : ولاينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ترق أدبى . أماالمسيحيون فكانوا يفدون شيئا فشيئاالي بلادالعرب هربا من الاضطهادات الدينية التي كانت فى المملكة الرومانية ؛ ولكن لم يكن فى حالهم نور يلفت البصر تألقه ، وفى حالة مسيحى الحبشة اليوم نموذج لذلك ، فانه لايمكن أن يتحلى الانسان بمدركات العقائد السامية من دين بمجردالتسليم بنص تلك العقائد .

«فى عهدهذه الاحوال الحالكة ، وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة، ولد محمد بن عبدالله فى ٢٩ أغسطس سنة (٥٧٠).» انتهى .

تعليقنا على هذه الفذلكة التاريخيه

رأى القارئون من الفذلكة التي عماها المستشرق المسيو جول لابوم فى ماكان عليه العالم على عهد ميلاد محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، انه كان فى حاجة ماسة الي صيحة من صيحات الحق المعهودة فى بعض ادوار الانقلابات البشرية ، تنبه الغافلين وتوقظ النائمين، ثم تهيب بهم الى النظر فى انفسهم، والتفكير فى مصيرهم، والعمل على امتلاخ وجودهم من ايدى اللاعبين بهم ، والمقامرين بحياتهم ، والي قارعة من قوارع القهر ترد عادية زعمائهم وتكبح كلب قاداتهم ،والى قبس ساطع من نور الحكمة يكشف الحجب المسدولة على أعين الناس،والغلف المضروبة على قلوبهم،لكى يربأوابانفسهم ان يعيشوا اغناما ويموتوا أغناما .

نعم وهذاهو الذى كان، فبعث الله خاتم النبيين الى شعب يجهل

وجود نفسه فضلا عن وجود غيره ، ولايحدث نفسه بنهوض فضلا عن أن يفضي به الي سواه. شعب كان قدنضبت حيويته حتي صارت لاتنجب بعض ما تنجبه الامم من قائم بدعوة أو مهيب الى حياة ، وماهى الا سنوات تعد على اصابع اليد حتي رأينا ذلك الشعب الذى كان جامدا بالامس يتطلب لقاء اكبر دولة فى الارض، وهم الرومانيون، فاصطدم بجيوشهم فى سوريه فسحقها بكتائبها المدربة، وحطم معاقلها المشيدة ، واجتاز حوائلها المنيعة، وقذف بها الي ما بعد حدود تلك البلاد ، واجبرها على اعطاء الدنية ، والصبر على هون، والرضاء من الغنيمة بالاياب.

وفى الوقت نفسه انقضت على فارس وهى تلك الدولة القديمة التي كانت تمثل كل ما كان فى الشرق من خيلاء الحكم المطلق ، وغلواء الاصول الرجعية، وماهى الا صدمة صادقة حتي تداعى صرحها المشمخر واصبحت فى ذمة التاريخ.

كل هذا فى اقل من عقدين من السنين، فكان اثره كالصاعقة انقضت على اكداس من العهن المنفوش، فلا تسل عما استتبع ذلك من الدوى الهائل فى امم لم تعتد مثل هذه الصدمات ، ولم تكن تحلم بان فى العالم قوة تستطيع أن تحدث فيها هذه الرجة التي زلزلت الارض زلزالا. ثم ماهى الا عشرات من السنين حتي اندفعت تلك العصبة الي اوروبا. لالتستغل الضعفاء، وتتضخم بامتصاص حياتهم، كما كانت الامم اعتادت ذلك من الفاتحين الاولين ؛ بل ومن اصحاب المطامع من ابناء جنسهم، ولكن لتخرجهم من الظلمات الي

الى النور بفتح دور العلم، وقبول الكافة فيها غير ناظرة لأديانها او نحلها، فكانت كالشمس تشع على العالم نوراساطعا، وحرارة محيية. فجمعت ما وجدته من تراث العقول معطلا فى بطون الكتب، فنقلاته الي لغتها وشرعت تزيده من جهود علمائها، وبحوث فلاسفتها، مطبقة اياها على العمل حتى اصبحت بيئة العلم، ومعدن الصنائع والفنون ؛ يعشو الاوربيون الي نارها، ويستضيئون بنورها .

وكان اخوانهم فى الشرق قد سلكوا من ناحيتهم هذا الطريق نفسه، فاصبحت هذه العصابة الاسلامية بقسميها منزعا لكل متعطش لعلم، ومستهد الى حق، ومتطلب لثقافة، فانتقل العالم كله تحت ظلها الظليل من الجمود الذي كان فيه، والهون الذى كان عليه، والغيبوبة التي كانت ألمت به، الي حياة جديدة ونشاط لم يكن للناس من قبل.

وبعد ان كانت ا الامم لا تنتظر الا كسفا من الظلمات، وتارات من الغارات، اصبحت تتطلب من ناحية هذين المركزين نورا يهديها الي الطريق، ويسوقها الي العمل .

ومازالت تدب الحياة فى اشباحها المصبرة، حتى تألفت منها عصابة تقوم بامره؛ فتصدى لها انصار القديم يسومون آحادها الخسف، ويصبون عليهم اسواط العذاب، ويزهقون ارواحهم لا لشىء غير انهم يتطلبون النور والحياة، حتى تم لهم الغلب فى القرن السادس عشر ؛ دهر طويل قضوه فى الكفاح والمجالدة؛ ولكنهم ما كانوا يستطيعون ان يرفعوا كل ما القى على عقولهم من السدف ؛ وعلى نفوسهم من الكسف، قبل مرور هذا الزمن ؛ وكان المسلمون هم الدافعين لهم الي هذه

الحركة

قال العلامة (درابر) المدرس بجامعة نيويورك فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين):

«سلك علم العرب الي اوروبا المسلك نفسه الذى سلكته أدبياتهم اليها. وذلك انه انهمر عليها من طريقين،جنوب فرنسا من جهة الاندلس، وطريق جزيرة صقلية (سيلسليا) . ومما ساعد على انتشاره فى اوروبا اعتزال البابوات فى مدينة (افينيون) ؛ والتفرق العظيم الذى كان موجودا فى المسيحية اذ ذاك،فلهذا السبب تمكن العلم العربى من ترسيخ قدميه فى جنوب ايطاليا.

ثم قال: «وبرسوخ قدمى العلم فى جنوب ايطاليا ، امتد رواق سلطانه على جميع البلاد الايطالية . وساعد على انتشاره وتكثير انصاره هنالك زيادة عدد الجمعيات العلمية . وكان ذلك على مثال ما وجد فى غرناطة وقرطبة تحت سلطان العرب». انتهى

ولم تزل مستكشفات العرب تدخل الى اوروبا حتي القرن الثامن عشر، وتصادف مقاومة عنيفة .قال العلامة درابر المتقدم ذكره فى صفحة ٢٣٠ من كتابه: «ان عمل التطعيم (فى النباتات) الذى اكتشفه المسلمون حمل الي أوربا سنة ١٧٢١ من طريق استامبول ، فصادف فى انجلترة مقاومة عنيفة من رجال الدين لولا تدخل الاسرة المالكة.

وقال العلامة (سديو) أحد وزراء فرنسا فى كتابه تاريخ العرب:

« كان المسلمون فى القرون الوسطى متفردين فى العلم والفلسفة والفنون، وقد نشروها اينما حلت اقدامهم وتسربت عنهم الي اوروبا

فكانوا هم سببا لنهضتها وارتقائها »

ولم يكتف المسلمون بان يكونوا معلمين للاوربيين، وملقنين لهم النهوض والمدنية ، ولكنهم اسسوا فى بلادهم جامعات ، وأقاموا مراصد، باعتبار انها كانت تحت سلطانهم، فبقيت لاهلها بعد جلائهم وأثمرت ثمراتها اليانعة لهم، فقد قال العلامة (درابر) فى كتابه عند ذكر المدارس الطبية عند العرب:

« واول مدرسة انشئت للطب فى اوروبا (اوربا من اقصاها الي اقصاها)هى المدرسة التى اسسها العرب فى بالرم من ايطاليا، واول مرصد اقيم فيها هو ما اقامه المسلمون فى اشبيلية باسبانيا. ولو اردنا ان نستقصى كل نتائج هذه الحركة العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب، فانهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا، وأوجدوا علوما أخرى لم تكن موجودة من قبلهم» . انتهى

هنا قد يستغرب بعض القارئين هذا الامر ويقولون : اذا كان العرب هم اول من اسسوا المدارس الطبية، واقاموا المراصد فى اوروبا، فكيف كان شأنها على عهدهم ، وعلى اية حالة كان اهلها يعيشون ليمكن أن يعرف مبلغ ما اثمرته مدنية العرب فيهم ؟

نقول نعم، اننا نحدثك عن ذلك منقولا عن كتاب (المنازعة بين العلم والدين) للعلامة درابر، قال:

« ان اوروبا فى ذلك العهد كانت غاصة بالغابات الكثيفة من اهمال الناس للزراعة ، وكانت المستنقعات قد كثرت حوالى المدائن فكانت تنتشر منها روائح قتالة اجتاحت الناس وأكلتهم، ولا مغيث

لهم. وكانت البيوت فى باريز ولوندرة تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب، ولم يكن فيها نوافذ ولا ارضيات خشبية. أما الابسطة فكانت مجهولة لديهم، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الارض نشرا. ولم يكونوا يعرفون المداخن، فكان الدخان يطوف البيت ثم يتسرب من ثقب صنعوه له فى السقف. فكان الناس فى هذه البيوت معرضين لكل انواع الاصابات الخطيرة. وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة فيلقون باحشاء الحيوانات، واقذار المطابخ، أمام بيوتهم اكواما اكواما تتصاعد منها روائح قاتلة ولا رقيب ولا حسيب. وكانت الاسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة من رجال ونساء واطفال، وكثيرا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية.

«وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش، فوقه كيس من الصوف كمخدة. وكانت النظافة معدومة لديهم لا يعرفون لها رسما.

« وكان الغنى منهم لا يأكل اللحم الا كل اسبوع مرة، ولم يكن للشرارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح.

«هذه الجهالة كان من اثرها على اوروبا ان عمتها الخرافات والاوهام، فانحصر التداوى فى زيارة الاماكن المقدسة، ومات الطب وحييت احابيل الدجالين. وقد كان اذا دهم البلاد وباء فزع رجال الدين الي الصلاة ولم يلتفتوا الامر النظافة، فكانت تفتك بهم الاوباء فتكا ذريعا، حتى انها زارت اوروبا عدة مرات فاجتاحت الملايين من أهلها فى ايام معدودة. وقد كان الموت فى اوروبا فى هذه العصور بنسبة واحد الي ثلاثة وعشرين فصار اليوم واحدا الى اربعين» انتهى

ولاجل ان يرى قارئنا الفرق بين هذه الحيا الاجتماعيه وبين حياة العرب فى بلادهم نأتيك بطرف مما ذكره العلامة درابر نفسه فى كتابه المذكور آنفا قال :

« لم تكن اوروبا العصرية بأعلى ذوقا، ولا ارق مدنية، ولا الطف رونقاء من عواصم الاندلس على عهد العرب. فقد كانت شوارعهم مضاءة بالانوار، ومبلطة أجمل تبليط، والبيوت مفروشة بالبسط، وكانت تدفأ شتاء بالمواقد، وتهوى صيفا بالنسمات المعطرة بوساطة امرار الهواء تحت الارض من خلال اوعية مملوءة زهرا. وكانت لهم حمامات ومكتبات ومحلات للغذاء وينابيع مياه عذبة. وكانت المدن والخلوات مـلأى بالاحتفالات التى كانوا يرقصون فيها على آلات الطرب، وكانوا بدل النهم وادمان السكر فى المآدب الليلية كجيرانهم الاوربيين، يحلون مآدبهم بالقناعة فكانت الخمر محرمة عليهم، وكانت غاية لذاتهم البدنية تنحصر فى تمشيهم فى الليالي المقمرة فى حدائقهم البالغة حد الجمال، او بجلوسهم حوالي أشجار البرتقال يسمعون قصة مسلية، او يتجادلون فى موضوع فلسفى، متعزين عن مصائب الدنيا وآلامها بقولهم انها لو كانت بلا آلام واصابات لنسوا حياتهم الآخرة. وكانوا يوفقون بين جهادهم فى هذه الحياة وبين آمالهم فى النعيم المقيم فى الآخرة» انتهـى كلام درابر .

هذا ما كان عليه العرب فى اسبانيا فقدر بعد ذلك مبلغ ما افاده العرب الاوربيين من نعمة العلوم والصنائع والفنون وما ابتنى على ذلك من هذه المدنيه الساحرة .

ولا تسل عما احدثته مدنية اوروبا فى كل الممالك المتصلة بها والبعيدة عنها، وكل ذلك يرجع الفضل فيه الي المسلمين، فلولاهم لبقيت اوروبا فى غيابتها الى اليوم ولم تنل منها امم المعمورة مانالته من التقدم والمدنية أما مباشرة او بالواسطة.

فالعالمون كلهم مدينون لخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم بما هم عليه من حياة وقوة، وبما فى نهضتهم من الروح المؤدى الي التكمل والعمران والمدنية.

أليس هذا مصداقا لقوله تعالي: «وما ارسلناك الا رحمة للعالمين» ؟

حظ الكون من الاسلام

لكل شيء حظ من الاسلام ، فالجمادات بحثه على إحياء مواتها ، والنباتات فى تحريضه على التأمل فى أنواعها، وفى الابداع المفاض على أجزائها والحيوانات بأمره بالعناية بها ، والشعوب بحضه على احترام حقوقها ، قد نالت من هذا الدين حظوظا موفورة تضمن لها وجودها . وتسمح لها بالتطور فى حدودها ؛ فهل علمت أن الكون فى لانهايته وعظمته لم يحرم نصيبه منه أيضاً ، فكان هذا الدين رحمة شاملة ، ونعمة على العوالم سابغة ؟

أى شيء أجل قدراً، وأعظم أثراً ، فى نفس المكبرين لشأن الكون، والمعتقدين بأنه مستقر جميع القوى ؛ ومستودع كل مايتخيل من الخيور ؛ من أن يجعله الاسلام مفزعا للسالكين الي الله، يستهدون بمعالمه فى حيرتهم، ويستأنسون بآياته فى تأماهم ، ويسيرون على ضوء هدايته فى تطورهم ؟ ألم يقل كتابه فى ألوان شتي من البيان : « قل

انظروا ماذا فى السموات والارض » ويقـول : « وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون ؟ » ، ويقل : « وفى الارض آيات للموقنين » ، ويقل : « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليـل والنهار لآيات لاولي الالباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ، ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » ، ويقل : « وما خلقنا السماء والارض ومابينهما لاعبين . ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » ، ويقل : « وماخلقنا السماء والارض ومابينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا » .

هذا ومن يتتبع ماورد فى الكتاب من ذكر الآيات المودعة فى الحيوانات والنباتات الشاغلة لسطح الارض ، حتي ماحقر من حشراتها كالنمل والنحل والبعوض ، وفى المياه والانهار والسحب والرياح والجبال والوديان ، وفى كل مايقع تحت الحس من أشياء الكون ، حتى اختلاف الالوان واللغات ، وفى جعله النظر فى كل هذا طريقا للاتصال بالروح العام ، وجلب الطمأنينة الي النفوس المتولهة الي الدخول فى ملكوته ، قلنا من يتتبع هـذا كله فى الكتاب الكريم يتحقق أن هذا الدين يفتح باب الطبيعة على مصراعيه فى وجه ذويه ، ويدعوهم للتفكير فى جميع كائناتها ماجل منها وماحقر ، لا ارضاء لشهوة العقل ، واستكمالا لحظ النفس من العلم فحسب ، ولكن للوصول الي عالم النور المحض ، والعروج الي مستوى الكمال الذى تتخيله النفس ولا سبيل الى طمأنينتها المرجوة الا بالوصول اليه . وهذا أسلوب لم يتوخه دين من قبل . لذلك

اندفع المسلمون وراء العلم اندفاعا لاهوادة فيه بعدوفاة النبي صلى الله عليه وسلم بست سنين كما يقول العلامة درابر فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) ، وكما هو الواقع المحسوس ، فجمعوا فى سنوات معدودة بين علوم الهند والفرس واليونان الاقدمين ، استخرجوها من مخابئها القصية ، بعد أن كان قد تركها أهلها واستناموا الي حالة من الجهل والجمود ، هى التي جاء الاسلام فانقذهم منها ، وفتح أمامهم باحات العلم الصحيح ، فكانت هذه الحركة داعية لقيام المدنية الحاضرة .

فتأمل فى حكمة هـذا الدين كيف جعل العـلم والحـكمة سببا للاشراقات الروحية ، وهما فى الواقع سببها المباشر ، فدفع بأهـله لتطلبهما من السموات والارض ، فـكان لهم منهما نصيب موفور فى سنين معدودة .

انظر هذا وتذكر كم جر التأمل فى الـكون ، والوقوف على بعض مساتيره من صنوف العذاب ، وشـكول الاضطهاد على الامم التى وقعت تحت سلطان حنظة الاديان ، فـكان نصيب المفـكرين الموت على أفظع ضروبه ، اما احتراقا بالنار أوغرقا فى اليم أوترديا من شاهق أو التمزق كل ممزق .

ليس هذا كل مافى هذا الباب ، فان الاسلام قد أ كبر من شأن الوجود الي حد أنه أقسم به وبكائناته فى غير موطن ، فقال : « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم » ولا هنا زائدة .

فانظر كيف أقسم بمواقع النجوم ، ثم أردف ذلك بقوله وانه لقسم (لو تعلمون) عظيم ، وهذا من أحسن ضروب الاشادة بذكر الاجرام

العلوية ومواقعها ، والحث على رصدها وضبط معالمها . فان كل تال لهذه الآية يقول : ماذا عسى أن تكون مواقع النجوم التي يقسم بها الله ، ويكبر من شأنها الى هذا الحد ؟ فتنساق العقول لرفع الستار عن هذا المستور ، لتدرك تلك العظمة التي ينوه الخالق نفسه بجلالتها هذا التنويه .

لم يكتف الاسلام بسرد ماتشاهده العين من كائنات الوجود ، وحفزه العقول لتنورها والتأمل فيها ، وتدارسها وتحصيل القرب من قيومها من ناحيتها ، ولكنه كاشف العقول بقوله : « فلاأقسم بما تبصرون ومالاتبصرون » بأن في الكون عوالم خفية لاتراها العين ، وان هذه الكائنات جديرة بأن يقسم بها مبدعها في هذا اللون من الاكبار ، وقد أوجزها في آية تفعل في العقول فعل السحر، ومازال الناس يظنون أن مالايبصرونه هو عالم الروح ومافيه من صنوف الكائنات العلوية ، حتي جاءت العلوم الحديثة فكشفت لنا أن فيما لانبصره عالما من الاحياء لاعدد لآحاده يتحكم في صحتنا ومرضنا ، ويتسلط على أجسامنا وعقولنا، هو عالم الميكروبات التي يكشفها المجهر، والميكروبات المتناهية في الصغر ولايستطيع كشفها ؛ وقوى هائلة يمكن أن يستخدمها الانسان في أجل الاغراض واسماها كالكهربائية والمغناطيسية ، وكالاشعة الكونية التي يعزى اليها الابداع والايجاد ، وكالأشعة المعتمة المختلفة المحيطة بنا من كل مكان ، بين البنفسجية وماوراء البنفسجية ، وأشعة اكس واشعاعات المواد الارضية كلها ، ومابتني على نظرية التيارات الاثيرية من الاتصالات اللاسلكية

وغيرها ، مما تحققه التجارب فى الايام المقبلة ، ويعتبر أكبر وأجل ماوصل اليه الانسان من مساتير الكون ، وأعظم موصل له الي سواه مما لانحس بوجوده اليوم بحاسة من حواسنا .

فللكون كما ترى أجل نصيب من الاسلام ، وفرق بين أن ينظر فيه الناظر توفية لشهوة عقلية ، وحباً فى كشف المساتير ، وبين أن ينظر فيه باعتبار انه مستقر القوتين المادية والروحية ، وباب الوصول الي الحضرتين الصورية والمعنوية ، ومتنزل الاشراقات القدسية ، مما لاغنى للنفس والعقل عن التطاع اليه ، وبذل قصارى الهمم فى الاتصال به .

نعم فرق شاسع بين هذين النظرين . وقد انفرد بالثانى المسلمون فتأدوا الي بسطتي العلم والدين ، فكما كانوا أعلم علماء زمانهم بالكون المادى وكائناته ، كانوا كذلك أقرب الناس من ملكوت الله وأمتعهم بأنواره ، فلم تختلط المدنية لديهم بالملاذ البدنية ، والاباحات الخلقية الي حد انها تهدد بالزوال والارتكاس الي الوحشية كما هى اليوم .

وهل يتخيل علم أجل أثراً ، وأينع ثمرا ، من علم يؤديك الى كمال الحياتين ، وغاية السعادتين ؟! لاشك فى أن هذا الاسلوب القرآنى قد اتبع اليوم فعلا ، فصارت نظريات الذين يتصدون لدراسة الكون ذات ناحيتين مادية وروحية ، فلاشىء يمنع بعد اليوم أن يصل الي مالا عين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر من الترقيات المادية والروحية ، ولاريب فى أن القرآن هو أول من دعا الي ذلك مصداقا لقوله تعالي : « إن هـذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

خط الدفاع الاخير

لقد أقمنا فى مقالاتنا السابقة الادلة القاطعة على أن الاسلام دين عام خالد ، وأن الرسول الذى جاء به هو خاتم المرسلين ، وأن ماأتى به هو خاتمة الوحى الالهى للبشر كافة، فكان جملة ما كتبناه كخطوط دفاع عن هذه الحقائق لايمكن اقتحامها مهما تذرع الخصم لذلك بالشبهات والاضاليل ؛ ولكننا رأينا، ولم يبق علينا الا الخاتمة، أن ننشىء خطا دفاعيا وراء جميع هذه الخطوط، نقتبسه كله من القرآن الكريم، هو أقوى وأمنع منها مجتمعة، لما فيه من روعة الكلام الالهى وسلطانه على العقول ؛ فنقول . قال الله تعالى :

قل ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والارض، لا إله الا هو يحيى ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبي الامى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون .

وماأرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لايعلمون .

ياأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم وان تكفروا فان لله مافى السموات والارض وكان الله عليما حكيما .

وماأرسلناك الارحمة للعالمين .

فاصدع بما تؤمر وأعرض من الجاهلين، انا كفيناك المستهزئين .

ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل

ولا تسل عما احدثته مدنية اوروبا فى كل الممالك المتصلة بها والبعيدة عنها، وكل ذلك يرجع الفضل فيه الي المسلمين، فلولاهم لبقيت اوروبا فى غيابتها الى اليوم ولم تنل منها امم المعمورة مانالته من التقدم والمدنية أما مباشرة او بالواسطة.

فالعالمون كلهم مدينون لخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم بما هم عليه من حياة وقوة، وبما فى نهضتهم من الروح المؤدى الي التكمل والعمران والمدنية .

أليس هذا مصداقا لقوله تعالي: «وما ارسلناك الا رحمة للعالمين» ؟

حظ الكون من الاسلام

لكل شيء حظ من الاسلام ، فالجمادات بحثه على إحياء مواتها ، والنباتات فى تحريضه على التأمل فى أنواعها، وفى الابداع المفاض على أجزائها والحيوانات بأمره بالعناية بها ، والشعوب بحضه على احترام حقوقها ، قد نالت من هذا الدين حظوظا موفورة تضمن لها وجودها . وتسمح لها بالتطور فى حدودها : فهل علمت أن الكون فى لانهايته وعظمته لم يحرم نصيبه منه أيضاً ، فكان هذا الدين رحمة شاملة ، ونعمة على العوالم سابغة ؟

أى شيء أجل قدراً، وأعظم أثراً ، فى نفس المكبرين لشأن الكون، والمعتقدين بأنه مستقر جميع القوى ، ومستودع كل مايتخيل من الخيور : من أن يجعله الاسلام مفزعا للسالكين الي الله، يستهدون بمعالمه فى حيرتهم، ويستأنسون بآياته فى تأملهم ، ويسيرون على ضوء هدايته فى تطورهم ؟ ألم يقل كتابه فى ألوان شتي من البيان : « قل

انظروا ماذا فى السموات والارض » ويقــل : « وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون ؟»» ويقل : « وفى الارض آيات للموقنين» ، ويقل : « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليــل والنهار لآيات لاولي الالباب، الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفــكرون فى خلق السموات والارض ، ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار»، ويقل : « وما خلقنا السماء والارض ومابينهما لاعبين . ماخلقناهما إلا بالحق ولــكن أكثرهم لا يعلمون» ، ويقل : « وماخلقنا السماء والارض ومابينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا » .

هذا ومن يتتبع ماورد فى الـكتاب من ذكر الآيات المودعة فى الحيوانات والنباتات الشاغلة لسطح الارض،حتي ماحقر من حشراتها كالنمل والنحل والبعوض ، وفى المياه والانهار والسحب والرياح والجبال والوديان ، وفى كل مايقع تحت الحس من أشياء الـكون ، حتى اختلاف الالوان واللغات ، وفى جعله النظر فى كل هذا طريقا للاتصال بالروح العام ، وجلب الطمأنينة الي النفوس المتولهة الي الدخول فى ملــكوته ، قلنا من يتتبع هــذا كله فى الـكتاب الـكريم يتحقق أن هذا الدين يفتح باب الطبيعة على مصراعيه فى وجه ذويه ، ويدعوهم للتفــكير فى جميع كائناتها ماجل منها وماحقر ، لا ارضاء لشهوة العقل ، واستكمالا لحظ النفس من العلم فحسب ، ولــكن للوصول الي عالم النور المحض ، والعروج الي مستوى الـكمال الذى تتخيله النفس ولا سبيل الى طمأنينتها المرجوة الا بالوصول اليه . وهذا أسلوب لم يتوخه دين من قبل . لذلك

اندفع المسلمون وراء العلم اندفاعا لاهوادة فيه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بست سنين كما يقول العلامة درابر فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) ، وكما هو الواقع المحسوس ، فجمعوا فى سنوات معدودة بين علوم الهند والفرس واليونان الاقدمين ، استخرجوها من مخابئها القصية، بعد أن كان قد تركها أهلها واستناموا الى حالة من الجهل والجمود، هى التي جاء الاسلام فانقذهم منها ، وفتح أمامهم باحات العلم الصحيح ، فكانت هذه الحركة داعية لقيام المدنية الحاضرة .

فتأمل فى حكمة هذا الدين كيف جعل العلم والحكمة سببا للاشراقات الروحية ، وهما فى الواقع سببها المباشر ، فدفع بأهله لتطلبهما من السموات والارض ، فكان لهم منهما نصيب موفور فى سنين معدودة .

انظر هذا وتذكر كم جر التأمل فى الكون، والوقوف على بعض مساتيره من صنوف العذاب ، وشكول الاضطهاد على الامم التى وقعت تحت سلطان حفظة الاديان ، فكان نصيب المفكرين الموت على أفظع ضروبه ، اما احتراقا بالنار أوغرقا فى اليم أوترديا من شاهق أو التمزق كل ممزق .

ليس هذا كل مافى هذا الباب ؛ فان الاسلام قد أ كبر من شأن الوجود الى حد أنه أقسم به وبكائناته فى غير موطن، فقال : « فلا أقسم بمواقع النجوم ؛ وانه لقسم لو تعلمون عظيم » ولا هنا زائدة .

فانظر كيف أقسم بمواقع النجوم ، ثم أردف ذلك بقوله وانه لقسم (لو تعلمون) عظيم ، وهذا من أحسن ضروب الاشادة بذكر الاجرام

العلوية ومواقعها ، والحث على رصدها وضبط معالمها . فان كل تال لهذه الآية يقول : ماذا عسى أن تكون مواقع النجوم التي يقسم بها الله ، ويكبر من شأنها الى هذا الحد ؟ فتنساق العقول لرفع الستار عن هذا المستور ، لتدرك تلك العظمة التي ينوه الخالق نفسه بجلالتها هذا التنويه .

لم يكتف الاسلام بسرد ماتشاهده العين من كائنات الوجود ، وحفزه العقول لتنورها والتأمل فيها ، وتدارسها وتحصيل القرب من قيومها من ناحيتها ، ولكنه كاشف العقول بقوله : « فلاأقسم بما تبصرون ومالاتبصرون » بأن في الكون عوالم خفية لاتراها العين ، وان هذه الكائنات جديرة بأن يقسم بها مبدعها في هذا اللون من الاكبار ، وقد أوجزها في آية تفعل في العقول فعل السحر ، ومازال الناس يظنون أن مالايبصرونه هو عالم الروح ومافيه من صنوف الكائنات العلوية ؛ حتى جاءت العلوم الحديثة فكشفت لنا أن فيما لانبصره عالما من الاحياء لاعدد لآحاده يتحكم في صحتنا ومرضنا ، ويتسلط على أجسامنا وعقولنا ، هو عالم الميكروبات التي يكشفها المجهر ، والميكروبات المتناهية في الصغر ولايستطيع كشفها ؛ وقوى هائلة يمكن أن يستخدمها الانسان في أجل الاغراض واسماها كالكهربائية والمغناطيسية ، وكالاشعة الكونية التي يعزى اليها الابداع والايجاد ، وكالأشعة المعتمة المختلفة المحيطة بنا من كل مكان ؛ بين البنفسجية وماوراء البنفسجية ؛ وأشعة اكس واشعاعات المواد الارضية كلها ، ومابتنى على نظرية التارات الاثيرية من الاتصالات اللاسلكية

وغيرها ، مما تحققه التجارب فى الايام المقبلة ، ويعتبر أكبر وأجل ماوصل اليه الانسان من مساتير الكون ، وأعظم موصل له الي سواه مما لانحس بوجوده اليوم بحاسة من حواسنا .

فللكون كما ترى أجل نصيب من الاسلام ، وفرق بين أن ينظر فيه الناظر توفية لشهوة عقلية ، وحباً فى كشف المساتير ، وبين أن ينظر فيه باعتبار انه مستقر القوتين المادية والروحية ، وباب الوصول الي الحضرتين الصورية والمعنوية ، ومتنزل الاشراقات القدسية ، مما لاغنى للنفس والعقل عن التطلع اليه ، وبذل قصارى الهمم فى الاتصال به .

نعم فرق شاسع بين هذين النظرين . وقد انفرد بالثانى المسلمون فتأدوا الي بسطتي العلم والدين ، فكما كانوا أعلم علماء زمانهم بالكون المادى وكائناته ، كانوا كذلك أقرب الناس من ملكوت الله وأمتعهم بأنواره ، فلم تختلط المدنية لديهم بالملاذ البدنية ، والاباحات الخلقية الي حد انها تهدد بالزوال والارتكاس الي الوحشية كما هى اليوم .

وهل يتخيل علم أجل أثراً ، وأينع ثمرا ، من علم يؤديك الى كمال الحياتين ، وغاية السعادتين ؟ لاشك فى أن هذا الاسلوب القرآنى قد اتبع اليوم فعلا ، فصارت نظريات الذين يتصدون لدراسة الكون ذات ناحيتين مادية وروحية ، فلاشىء يمنع بعد اليوم أن يصل الي مالا عين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر من الترقيات المادية والروحية ، ولاريب فى أن القرآن هو أول من دعا الي ذلك مصداقا لقوله تعالي : « إن هـذا القرآن يهدى للتى هي أقوم » .

خط الدفاع الاخير

لقد أقمنا فى مقالاتنا السابقة الادلة القاطعة على أن الاسلام دين عام خالد ، وأن الرسول الذى جاء به هو خاتم المرسلين ، وأن ما أتى به هو خاتمة الوحى الالهى للبشر كافة ، فكان جملة ما كتبناه كخطوط دفاع عن هذه الحقائق لا يمكن اقتحامها مهما تذرع الخصم لذلك بالشبهات والاضاليل ، ولكنا رأينا ، ولم يبق علينا الا الخاتمة ، أن ننشىء خطا دفاعيا وراء جميع هذه الخطوط ، نقتبسه كله من القرآن الكريم ، هو أقوى وأمنع منها مجتمعة ، لما فيه من روعة الكلام الالهى وسلطانه على العقول ، فنقول . قال الله تعالى :

قل ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والارض ، لا إله الا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الامى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون .

وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ياأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم وان تكفروا فان لله مافى السموات والارض وكان الله عليما حكيما .

وما أرسلناك الا رحمة للعالمين .

فاصدع بما تؤمر وأعرض من الجاهلين ، انا كفيناك المستهزئين .

ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل

لتعارفوا ان أكرمكم عندالله أتقاكم ان الله عليم خبير .

يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا . فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما .

ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون .

هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين .

قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل . واتبع مايوحى اليك واصبر حتي يحكم الله وهو خير الحاكمين .

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الي النور باذنه ويهديهم الي صراط مستقيم .

يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين .

وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء .

قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ، ما كان لي من علم بالملأ الاعلى اذ يختصمون ، إن يوحى الي أنما أنا نذير مبين .

ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الي صراط العزيز الحميد .

هو الذى أنزل اليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب

وأخر متشابهات ، فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منـه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، ومايعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، ومايذكر الاأولوا الالباب .

لوأنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .

قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ماتدعوهم اليه ، الله يجتبى اليـه من يشاء ويهدى اليه من ينيب . وماتفرقوا الا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم ، وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولاتتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل من كتاب ، وأمرت لاعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لاحجة بيننا وبينكم (أى لامحاجة ولاخصومة) ، الله يجمع بيننا واليه المصير .

ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الامن بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب . فان حاجوك فقلت أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى ، وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين ءأسلمتم ، فان أسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد .

أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .

فتوكل على الله انك على الحق المبين انك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ، إن تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون .

نبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب .

فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة ، الله التي فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لايعلمون .

قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الي ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ؛ وان تولوا فانما هم فى شقاق ؛ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون .

ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء .

آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير .

ان الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا .

أفمن يعلم أن ما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، انما يتذكر أولوا الالباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار .

وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيأ ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون .

قل يا أهل الكتاب تعالوا الي كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيأ ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون .

أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور .

وقل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا .

قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد .

بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون .

قل ماأسألكم عليه من أجر وماأنا من المتكلفين ، إن هو الاذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين ، أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ، أم يقولون به جنة ، بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون . ولواتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون . أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين . وانك لتدعوهم الي صراط مستقيم .

وان كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون .

ومنهم من يستمعون اليك ، أفأنت تسمع الصم ولوكانو الا يعقلون ؟ ومنهم من ينظر اليك، أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون؟

قل ياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم .

لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم .

وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون .

ولوشاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون . قل انظروا ماذا فى السموات والارض ،

وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون . فهل ينتظرون الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين .

أرأيت من اتخذ الهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا .

هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ، انما يتذكر أولوا الالباب ؟ (أى أصحاب العقول) .

هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون .

يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

قل هذه سبيلى ، أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين .

ومايتبع أكثرهم الاظنا ، ان الظن لايغنى من الحق شيأ .

واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله ، قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لايعقلون شيأ ولايهتدون ؟

انهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون ، ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين .

أم يقولون افتراه ، قل ان افتريته فلاتملكون لي من الله شيأ ، هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيدا بينى وبينكم ، وهو الغفور الرحيم .

واصبر وماصبرك الا بالله ، ولاتك فى ضيق مما يمكرون .

وتلك الامثال نضربها للناس ومايعقلها الا العالمون . (بكسر اللام)

وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون !

فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ان الله عليم بما يصنعون .

ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء .

لست عليهم بمسيطر . وما أنت عليهم بجبار . قل لست عليكم بوكيل .

ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون

ان الله لا يغير مابقوم حتي يغيروا مابأنفسهم .

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين .

أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر .

وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ، فحاسبنا حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا .

من كان يظن أن لن ينصره فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الي السماء (أى فليمدد بحبل الي السقف) ثم ليقطع ، فلينظر هل يذهبن كيده مايغيظ (أى أن من يظن أن الله لاينصر محمدا فليشنق نفسه يأسا لانه ناصره حتما) .

كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز .

سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا .

وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فاعترفوا

بذنبهم فسحقا لاصحاب السعير .

سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟

من عمل صالحا من ذكر أوأنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون .

من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

كل أمرىء بما كسب رهين .

من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوأ يجز به .

لا يكلف الله نفسا الا وسعها .

ولا تقف ماليس لك به علم : ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا .

ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا : اعدلوا هو أقرب للتقوى (أى ولا تحملنكم عداوتكم لقوم على ظلمهم) .

ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون .

ولا تستوى الحسنة ولا السيئة : ادفع بالتي هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، ومايلقاها الا الذين صبروا ، ومايلقاها الاذوحظ عظيم .

وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة : ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الارض . ان الله لا يحب

المفسدين :

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم .

ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون .

ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال،على حبه، ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون .

قل انما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن ، والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون .

ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم .

يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين .

قول معروف ومغفرة، خير من صدقة يتبعها أذى.

وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله .

كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن

المنـكر وتؤمنون بالله .

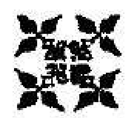
لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ولم يظاهروا على اخراجكم ان تبروهم وتقسطوا اليهم، ان الله يحب المقسطين .

مايريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولـكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليـكم .

والعصر إن الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

وادع الي سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهوأعلم بالمهتدين .

ومن أحسن قولا ممن دعا الي الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين .



خاتمـــــة

رأى القارئون من كل ما كتبناه في هذا الكتاب، أن الاسلام بحق وبكل دليل دين عام خالد، وقد تذرع بكل الاصول العليا التى تحله هذه المكانة عند الآحاد والجماعات .

فقد دعا الي الوحدة الانسانية العامة ، ومحق ما كان بين الشعوب من فوارق القوميات، وأوهام الطبقات الاجتماعية ، وقرر أن أصل الاديان واحد ، وأن الخلافات التي يشاهدونها بينها انما سببها بغى قادتها ، فهم الذين خلقوها لمصلحتهم الذاتية . ولذلك تركهم جانبا ووجه دعوته الي الناس كافة، لا الي الآحاد الممتازين منهم، ولا الى الجماعات التي تتصدر للنيابة عنهم ، وهدم التقليد من أساسه ، وطالب كل معتقد بالبرهان ، وأعلن أن ايمان المقلد غير مقبول ، ونادى بسلطان العقل ، ووجه العقول الى النظر في الطبيعة وفى كائناتها ، وحضها على تعرف السنن الاجتماعية بدراسة أحوال الامم، وتتبع تطوراتها في العصور المختلفة ، مصرحا بأن للاجتماع سننا لا تقبل التبدل ولا التحول . وحض على طلب العلم والحكمة من أقصى مظانهما ، وشدد في ذلك على الجنسين حتي جعله عليهما فرضا ، وربط فهم الدين بهما، فقال تعالي : « وتلك الامثال نضربها للناس ومايعقلها الا العالمون » بكسر اللام .

ثم توسع فى الاشادة بالعلم الي أقصى مايتخيله العقل، وأتى بذلك في ألوان هى أقصى مايسمح به الابداع الكتابى في عشرات من الآيات، فقال تعالي : « ولنبينه لقوم يعلمون »، وقال : «هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون» ، وقال : « وتلك حدود الله نبينها لقوم

يعلمون »، وقال : « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق »، وقال: « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم » ، وقال : « ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم »، وقال : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » وقال : « ان فى ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام . وقال : « وقل رب زدنى علما ».

وقد سمى أهل الجاهلية بالذين لا يعلمون ، فما هذا كله ؟ والله لو كان محمد صلى الله عليه وسلم تخرج فى اكسفورد أو السوربون أو جامعة برلين ، لما جاء كتابه بأكثر من هذا فى الدعوة الى العلم ، فما ظنك وقد كان فى أبعد الامم عن معاهده، وأشدها جهلا بأصوله وفروعه، فما سر هذا الامر الجلل، وماذا أريد منه ؟

سر هذا الامر أن هذا الدين خاتمة الوحى الالهى، وما كان كذلك وجب أن يدرع بكل مايقتاد العقول ، ويستهوى الفهوم ، ويعلو على كل مذهب يتصدر للزعامة فى الارض .

وقد علم موحيه أن سيكون زمان يعترك فيه الدين والعلم، ويظهر الثانى على الاول بسمو أصوله، ودقة أسلوبه، فجعل دينه الاخير أجمع لهذه الاصول وأرعى لهذا الاسلوب من أبعد المذاهب العلمية شأوا فى هذا الباب .

هذا مظهر غريب من مظاهر مناعة هذا الدين، وصلاحيته لجميع الازمان ، ولم يبق بينه وبين أن يعلن انه دين الانسانية العام الا أن يفهمه الناس على هذا الوجه .

لو كان ما نقوله مأخوذا من القرآن استنتاجا ، أو من طريق التأويل، لهان الخطب على خصمه ، ولكنه مقرر فيه بالنص ، ومكرر فى ألوان شتى الى حد الافراط ، وليس هو بافراط ، ولكنه أشباع لموضوع

سيكون فى يوم من الايام محك النظر بين الناس .

أن هذا الامر من العجب بحيث لو عرضته على أحد من المفكرين، من غير المسلمين، لأنكره أشد الانكار ، لانه يراه قد جاء سابقا لاوانه بأكثر من الف سنة، وهو محال فى نظره . واذا ثبت له انه موجود فى القرآن بنصوص لاتحتمل التأويل، ومكرر فى ألوان شتي من البيان ، لكان هذا وحده أدل دليل فى نظره على حقية الاسلام، وعلى انه حال بكل مايتخيله العقل من المؤهلات لأن يكون ديناعاما خالدا. فهل بالغ الكاتب الانجليزى الكبير (برنارد شو) فى قوله ان العالم كله سيصبح مسلما؟

لا، انه لم يبالغ، ومن العجيب أن القرآن نفسه قد أنبأ بهذا عينه فقال تعالي : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ، وقال « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

كان أحد أصحابى يتحدث الي وأنا سائر معه فى أمر هذه المقالات التي نشرتها فى الجهاد، ويذهب الي انها قد بلغت مدى بعيدا فى التدليل على صحة الاسلام وسلامة أصوله من الضعف، فشكرت له قوله ثم قلت له هب بعد هذا كله أن يقول لك قائل انه لايعتقد برسالة محمد، ويرى انه هو الذى وضع القرآن، فماذا كنت قائلا له ؟ قال قل له اذن فقد وضعت محمدا فوق مكانات الانبياء، فان عربيا يولد يتيما فى بيئة أمية باحتة ، ليس فيها أثارة من علم ، ولاعهد لها بدعوة ، ولاخيال من حركة فكرية ترمى الي غاية اجتماعية ، وفى جو مشحون بأخبار الغارات والثارات ، يضع كتابا يشحنه بأصول لم يحلم بها الفلاسفة الاقدمون ، ويملأه بمبادىء لم تتولد فى هذه القرون الاخيرة الاعقب تطورات اجتماعية ، وانقلابات فكرية لاتدخل تحت حصر ،

ويغرس أعلاما واضحة لشريعة تتمثل فيها الحقوق الطبيعية للافراد والجماعات لم تتطلع اليها شريعة ولا فى القرن العشرين، ويقرر للعقل والعلم أسلوبا يبز ماوضعه غطارفة الفلسفة ، وعباقرة العلم الى هـذا العهد الاخير ، قلنا ان عربيا فى تلك البيئة ، لوكان هو نفسه واضع ذلك كله، لـكان مخلوقا قد منحه الخالق قوى فوق قوى البشر ، وعقلا أعلى من عقولهم ، تتحتم دراسـة نفسيته على الناس تحتما ، ويكون نتيجة ذلك أن يعتبر آية من آيات الله فى الارض .

نعم، لأن الرجل قـد يسبق الزمان الذى يولد فيـه فى الاصل أو الاصلين، أما سبقه الـكافة فى مجموع من الاصول هو أخص مايقوم عليه البشر من أمرى الدنيا والدين ، ويأتى من كل ذلك بالنهايات القصوى ، ثم هو مع هذا التفوق المحير للعقول ينكر على نفسه كل فضل فى وضعها ، ويعمل على تـكوين جماعة تقول بها ، وتجرى على سننها، وينجح فى ذلك كله انجاحا مدهشاً تحقيقا لوعده فى قوله تعالى: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض» فتصبح هذه الامة بيئة العلم والحكمة والسلطان وزعيمة للامم كافة فيها مدى قرون طويلة ، فتحقيق هـذا كله من المحالات العقلية . فان ثبت أن رجلا قام به فيكون ذلك الرجل هو الذى يحلم به (نيتشه) ويدعوه بالسوبرمان.

زد على هذا أن هذا الرجل على خلاف جميع المصلحين، قد قام فى أمة لاتواتى مطامحه فى الاجتماع لتغلغلها فى الفرقة ؛ ولا فى التعقل لتوغلها فى الجاهلية ، ولا فى التفكير والنظر لعراقتها فى الامية؛ ولم تـكن قد تطورت الي حد أن تلين فى يده ، وتستنيم الي مذهبه ، ومع كل هذا رأيناه يقول : «كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوى عزيز »

ويقول مجيبا على تهديدهم : « أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر »

أعلن الاسلام عن نفسه انه خاتمة الوحى الالهى ، وانه الدين العام الخالد ، فوجه خطابه الي البشرية كلها ، ولم يوجهه لامــة بعينها مرة واحدة ؛ وصرح بأن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين . وهذه كلها دعاوى ليس فيها شيء من الغرابة ، فقد يتفق أن يقولها كل من تحدثه نفسه بها ، ولـكن العجب العاجب أن تطابق هذه الدعاوى الواقع . فلم يقم داع بعد محمد مدعيا النبوة الا تـكشف أمره عن جنون يستحق عليه الرحمة ، ولم يعرض على العالم كتاب تحت عنوان وحى سماوى بعد القرآن الا تضح أمره عن أفك مبين . فلم يبق الا دعوى أن الاسلام دين عام يصلح لـكل جماعة فى كل زمان ومكان ، وقد رأيت انه كيف أقام الحجج على ذلك بفيض من الاصول لا تبقى فى نفس أى متعنت حاجة الي المزيد ، وتسمح لـكاتب مثلى فى القرن العشرين أن يستخدم كل أسلحة الثقافة العصرية فى سبيل تأييدها ، وينجح فى ذلك الي حد بعيد .

هذا عجيب الي أقصى ما يبلغه الخيال من معنى هذه الـكلمة ، وأعجب منــه المناعة التي تحلى بها الاسلام لتقيه شر التحجر الذى تمنى به التعاليم الدينية من وقوفها فى حيز محدود ، مع تقدم العلوم فى مدى العصور ، وتطور العقول بتوالى الانقلابات . وهذه المناعة فيه تقوم على خمسة أركان :

(أولها) جعله للعقل والعلم السلطان المطلق ؛ والحـكم الفصل حتي ولو عارضا نصوص الـكتاب ، فحمل فى تأويلها سبيلا لمماشاة الترقيات العلمية والعقلية .

(ثانيها) حضه على طلب العلم وجعله اياه سبيلا للرقى الروحانى كما هو سبيل للرقى المادى، ليقطع على الجامدين كل أمل فى التحكم بالدين على صد الحركة العلميه . ولذلك كان المسلمون الاولون أسبق الامم الى كل علم، وأسرعهم الى كل جديد متأولين كل مايعترضهم من الكتاب.

(ثالثها) عدم حصره الفهم فى الدين فى جيل من الناس، ولا قصره اياه على طائفة معينة منهم ، ولكنه فتح باب النظر والتجديد فيه للكافة على مصراعيه فى كل زمان ومكان كما رأيت.

(رابعها) سنه سنة التجديد فى الدين نفسه، فقد علم أن لكل زمان مناهج للفهم ، ووجهات للتفكير ، ومسلمات أو مرجحات خاصة ، فاذا لم تتجدد الفلسفة الدينية وتطبق على الحاجات الجديدة باسأن أهل كل عصر، وتشمل عناصر ثقافتهم جمدت حيث هى، وتركها الناس ومضوا مع العلم لا يلوون على شىء . فقال عليه الصلاة والسلام :

« ان الله يرسل على رأس كل مئة من يجدد لهذه الامة أمر دينها» .

(خامسها) حسمه مادة القيل والقال فى الكتاب، وحمايته اياه من الخبط والخوض فيه ، والذهاب فى تأويل آياته كل مذهب ، وكتب الوحى لاتخلو من الاشارات الى عالم الروح والكائنات الخفية ، والى الحياة الاخرى ومافيها من ثواب وعقاب ، والى التنويه بحوادث ماضية ، وأساطير قديمة امتزجت بعقول المتقدمين ، وصارت عنصرا من عناصر شخصياتهم ، وكل هذه الامور تقبل الاحذ والرد ، ويجد فيها الخصوم مساغا لجعل الكتاب عرضة للنقد ، بل ربما حملت الكثيرين على الحكم عليه بمخالفته للعلوم ومناقضته للتاريخ ، وخروجه عن دائرة المعقول ، فجاء الاسلام بما يحسم هذه المادة حسما ، فأمر الله فى نص صريح بعدم الخوض فيها أو محاولة تأويلها، مصرحا بأنها لا تقبله بحال، وانه لا يحاول

ذلك فيها الا زائغ العقيدة ، فقال تعالى : « هو الذي أنزل اليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، ومايعلم تأويله الا الله، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، ومايذكر الا أولو الالباب

فهذه الاركان الخمسة التي تقوم عليها مناعة الاسلام ، تكفى أن تحميه شر كل مايتصور من المحللات وعوامل الهدم، وهى تدل على الهية هذا الكتاب، وانه وضع ليبقى بقاء الانسان مصونا من كل تصدع.

فاذا طمع طامع بعد هذا فى هدم هذا الدين والتشكيك فيه، فليطلع قبل أن يشرع فيما تصدى له على كتابنا هذا، ليأتى ان استطاع باسلحة جديدة، اما كل ماعهده الناس لخصوم الاسلام من الاسلحة المعروفة فقد تحطمت وأصبحت هباء تذروه الرياح، وبقى الاسلام سليما من كل شبهة ، وسيبقى كذلك مادامت الارض والسماء :

أفلت شموس الاولين وشمسنا أبدا على أفق العلا لاتغرب

دفع شبهات عن الاسلام

كان بعضهم أعلن فى الجرائد أن فى مكتبة الجامعة الامريكية كتابا يدعى (مسائل فى الدين)، اشتمل على طعن فى الاسلام والقرآن وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ودلل على مايقول بايراده النص الانجليزي . فقمنا بالرد على هذه الشبهات فى جريدة الجهاد ، ونرى من متممات هذا البحث أن نأتى على تلك الردود هنا فاليك :

تصحيح اخطاء تاريخية ودينية

ملاحظات على كتاب مسائل فى الدين

حدث فى هذه الايام الاخيرة أن أحد طلبة الجامعة الامريكية أذاع فى الصحف أن هذه المدرسة تقوم بدعوة ضد الديانة الاسلامية، واستشهد على دعواه بقطعتين انجليزيتى العبارة، اقتبسهما من كتاب اسمه (مسائل فى الدين)، يعطى لطلبة السنة الاولى ، قرأناهما فألفينا فيهما أقوالا عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن القرآن والاسلام تنافى الحقيقة . واذ كان هذا الكتاب معول تلاميذ فى الاخلاق والدين ردحا من الزمان، فقد وجب علينا أن نتتبع هذه الاقوال بما يدحضها، تصحيحاً لعقيدتهم من ناحية، وتقويما لرأى الجامعة الاميريكية من ناحية أخرى، كيلا تقع فى مثلها وهى بين ظهرانى عرفة هذا الدين وفطاحل كتابه .

نظرنا فى هذه الاقوال التى قرأناها فرأيناها تدور حول ثمانى مسائل :

أولها — أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أولي به أن يعتبر مريضاً عصبي المزاج .

ثانيها — انه فى أواخر أيامه كان يلجأ الي التصنع، فيدعى انه يرى من المشاهد الروحانية مايتفق وحاجاته المادية .

ثالثها — انه كان يرتكب أعمالا من القسوة والغدر فى سبيل اصابة مراميه القومية والدينية .

رابعها — أن الدين الاسلامي حربى تعوزه لطافة المسيحية ورقتها .

خامسها — انه لم يثبت أن الاسلام دين ترق .

سادسها — انه يجيز الرق وتعدد الزوجات ويسهل على الزوج الطلاق ، وان ماتعانيه المرأة اليوم من حالتها السيئة سببه غيرة النبي المتطرفة .

سابعها — ان اكثار النبي من الحث على الصدقة يرجع الى ماقاساه فى طفولته من الحرمان واليتم. وهذا أيضا علة كثرة المتسولين حيثما تدرس تعاليمه .

ثامنها — أن القرآن مشحون بأخبار المشاهدات الروحانية البعيدة عن العقل، وانه يعوزه البيان الساحر، والترتيب الضرورى . وهذا من أعظم عالى الاملال والارتباك التي لهذا الكتاب، مما جعله غذاء عقيما لذويه .

هذا ملخص ماقرأناه فى تينك النبذتين، وقدرأينا أن نكر على كل منها بالرد لغرض علمى بحت، بعيدين عن جميع الملابسات التي تمس هذا الموضوع فنقول :

هل كان محمد مريضاً عصبي المزاج ؟

الذى أجمع عليه المؤرخون أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث قبل النبوة اربعين سنة يشتغل بجسمه وعقله لكسب القوت . فعمل أولا فى الرعاية، ثم فى التجارة وقد سافر فى سبيلها الي الشام، فقام بهذين العملين على أكمل الوجوه، حتي أن السيدة التى كان يعمل فى تجارتها ارتضته زوجا لها لما رأته من أمانته، وما آنسته من التوفيق الذى صادفه .

وقد ورد فى التاريخ زيادة على هذا انه كان من القوة الجسدية

فوق الحالة العادية ، حتي قالوا انه صارع (ركانة) في الجاهلية وصرعه . وقد كان (ركانة) هذا من أصلب الناس عوداً وأشدهم أسراً . وقد غرى الناس بتتبع أحوال المشهررين ، واعتبرت سيرة النبي على وجه خاص من أولي الامرر بالتمحيص والتفاية ، فلم ينقل عن أحد ممن تصدى لهذا الامر انه قال إن رسول الله صلى الله عايه وسلم كان أولي به أن يعتبر مريضاً ، بل قالوا انه كان يتمتع بصحة كاملة ، وان كل مايروى عن لون بشرته وامتلاء جثمانه يدل على ذلك أصرح دلالة .

وقد روى عنه انه كان يقود المعارك ، ويقارع صناديد الجاهلية ، والمريض لايستطيع ذلك بوجه من الوجوه .

أما انه كان عصبي المزاج ، فراد مؤلف الكتاب الذى نحن بصدده انه كان من أولئك النوراستانيين (*Neurasth'niques*) الذين فقدوا التوازن الحيوى فصاروا عالما وحدهم بين المرضى والاصحاء . وهذا مالا يمكن التسليم به ، لان هذه الحالة العصبية لاتوجد إلا لمن تكون أعمالهم جلوسية . ولذلك قرر الاطباء أن النوراستانيا لاوجود لها بين الجماعات العائشة على حالة قبائل ، وأنها من ثمرات الحياة المدنية لتوالي التأثيرات الخارجية على الاعصاب فتضمحل وتشتد حساسيتها ، حتي تجعل صاحبها من اضطراب الجسم والعقل فى حالة كرب ويأس وتشاؤم ليس لها حد .

فمن أين ينال محمداً مثل هذه الحالة ، ولم تكن حياته جلوسية ، بل كان يعمل بجسده لكسب قوته الي أن بلغ الاربعين من عمره ؟ ولو كان علي شيء من هذا خلافاً لمقررات علم الطب لبلغنا عنه

الشيء الجم لكثرة المتتبعين لاحواله .

ويظهر من سياق عبارة كتاب مسائل فى الدين أن هذه الحالة كانت تمثل له مالا حقيقة له من المشاهد الروحانية، كما هو حال بعض المرضى من ذوى الامزجة العصبية ، ولكن فات المؤلف أن مثل هؤلاء المرضى لاتصدر منهم إلا أعمال مشوشة مضطربة . والمعروف طبياً انهم لايتعرضون لتحمل اعباء الاعمال التي لابد منها لكسب قوتهم، وأكثرهم يصبحون عالة على ذويهم،فان تعرض بعضهم لها على كره منه ، أوقع اللوث والاضطراب فيها ولم يحسنها على أى وجه كان .

والذى شوهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم دفع بنفسه للدعوة إلى دين فى وسط أمة برمتها وحيداً أعزل لاحول له ولاحيلة ، وقد تذرع بكل مايتذرع به الرجل القوى، ذو الارادة الحديدية لبلوغ غايته،ومارال بهذا الامر الجلل يربه ويتحمل أطواره وتكاليفه،حتي جاء دور الاحتكام إلي الاسلحة،فقاد الامور فى هذا الدور أحسن قيادة ، وخاض بنفسه المعارك وأبلى فيها البلاء الذى ليس بعده غاية،حتي لم تحفظ عليه فرة واحدة، وقدحفظت على أعظم فرسان الجاهلية .

فاذا كان هذا كله يصدر من رجل دنف،ذى مزاج عصبى مريض، فهو مخالف لسنن الطبيعة ، ويقوم بدحضه كل شيء فى عالم التجارب الحيوية . والتعرض لمصادمة الواقع المحسوس الي هذا الحدمن مؤلف، لايكسب ذويه غير الاشتهار بعدم التمحيص فى المسائل التاريخية ، وهى تهمة لولصقت بهم أفقدتهم أثمن مايتسلح به خصم شريف فى ميدان دينى يجب أن يحاط بجميع الخلال الشريفة والصفات الكريمة .

هذا ماعن لنا أن نقوله فى الامر الاول، وسنوالي البحث فى الامور الاخرى على حسب ترتيبها والله المستعان .

هل كان محمد يتصنع الوحي؟

المسألة الثانية التي نقلناها عن كتاب مسائل فى الدين أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتصنع فى آخر سني حياته الوحي، لتحقيق أغراضه . وهذه عبارة لا يستقيم لها معنى بذاتها ، إلا إذا ضم اليها شرح من العارفين بشبه خصوم هذا النبي الكريم . لانه يمكن أن يقال اذا كان محمد تصنع الوحي فى أواخر أيامه ، فهل كان صادقا فى ادعائه الوحي فى أوائل حياته ؟ كيف تعقل مثل هذه الحالة ؟

لاتعقل الا اذا كان مؤلف (مسائل فى الدين) يرى رأى القائلين بأن محمدا لم يكن فى أوائل أيامه كاذبا فيما يدعيه من رؤية الملك ومن سماعه أقواله ومن شعوره بالوحي الباطن ، لانه كان فى زعمهم مريضاً عصبي المزاج مصابا (بالهستريا)، فيرى ويسمع مالا حقيقة له ويحسبه حقائق، ويصبغه بصبغة العقائد التى تملأ قلبه ، والصور التى تشغل عقله . ولكنه فى آخر أدواره خفت وطأة الهستيريا عنده فكان يستر عجزه بالتكلف، فيدعى انه أوحى اليه ولم يوح اليه، رامياً بذلك الي تحقيق أحلامه الاجتماعية والدينية .

هذه مزاعم الناظرين فى سيرة محمد وأعماله، ممن لا يصدقون بامكان اتصال انسان بالعالم العلوى، بل ولا يعتقدون أن هنالك عالما علويا . فقد كبر عليهم أن يصموه فى أول حياته بالتضليل والتدجيل . وقد تحمل فى سبيل دعوته مالا يتحمله المتكلفون ، ولقي مالا يصبر عليه

المتصنعون ، ولكن ماعذر مؤلف كتاب مسائل فى الدين وهو يعتقد بالوحى ، ولا يضن به على رجال كثيرين ممن لم يعملوا جزءاً من ألف مما عمله خاتم النبيين ، ولاأثر لهم بجانب آثاره التي غيرت وجه المعمور من حال الى حال فى سنين معدودة ؟

انا ذكرنا شبهة الهستيريا فلايصح لنا أن نترك أكثر القارئين يتساءلون عن ماهية هذا الداء، وعن كنه الخيالات والضلالات الحسية والمعنوية التي يولدها للمصاب به ، وعن مكان هذه الشبهة من سيرة رسول الدين العالمى الاخير .

الهستيريا كما بينه الاساتذة الاعلام كريكيه ولاندوزى وشاركو داء عصبى عضال، أكثر مايعترى النساء ، وهو وراثى صفاته المميزة شذوذ خلقى حاد، وحساسية متطرفة تصل الي حدود غير معقولة ، ثم يزداد المرض نشوبا فيشعر المصاب به بالاختناق، وبضيق فى الصدر عظيم، وبخفقان مزعج وارتعاش، وباضطرابات خطيرة فى الهضم، وقد يصحب هذه الاعراض شلل فى بعض الاعضاء .

ماذا تابع هذا المرض تقدمه جاء دور التشنج، فيسبقه بكاء وعويل وكرب عظيم وهذيان ينتهى بالاغماء .

فان تجاوز هذه الدرجة، دخل فى دور أشد من كل مامر خطورة، فيرى المريض به أشباحاً تهدده أوتسخر منه أوتزعجه ، ويسمع أصواتاً لاوجود لها فى حس غيره . ومن أخص مميزات هذا الدور شعور المصاب بكرة تأخذ بمخنقه، فلا يزال يضطرب منها حتي تفقده الحس تماما، فيقع فى الاغماء وسط حركات مضطربة بيديه ورجليه،

وقفز من مكان الي مكان على صورة توقع الذعر فى قلب كل من يراه فلا يجد لانقاذه حيلة غير الصبر حتي تزول عنه يسيراً يسيراً لتعاود السكرة عليه بعد حين.

فهل كان النبي صلى الله عليه وسلم هستيريا تنتابه هذه الاعراض؟ لو كان كذلك لوجب وضعه فى أقصى درجات هـذا المرض، لانه كان يرى شبحاً يظنه ملكا ، ويسمع صوتاً يتخيله وحياً ، وهذه الامور من مميزات الدور الاخير لهذا الداء، حين يتفاقم أمره وتشتد وطأته ويعز شفاؤه . ومتي كان المصاب فى هذا الدور وجب أن يكون هدفا لجميع أعراضه، من أول شذوذ الاخلاق والحساسية المتطرفة والخفقان المزعج والبكاء والنشيج والهذيان (أى الهلوسة)، الي التخبط باليدين والرجلين، والقفز بالجسم كله من مكان الي مكان ، فهل نقل عن خاتم المرسلين شيء من هذه الاعراض الثقيلة على كثرة الذين تتبعوا حياته وتعقبوا أعماله ؟

وهل عهد فى تاريخ العالم أن مريضاً بمثل هذا الداء العضال، الذى أعجز الطب قديما وحديثاً، يندب نفسه لتطهير أمة برمتها من أرجاس الوثنية، وتوحيد كلمتها، وجمع متفرقها، وايتائها بدستور ينظم شؤونها، ويسدد خطواتها، وينقلها من طورها المتحجر الذى كانت فيـه الى أطوار متعاقبة تندفع فيها اندفاعا طبيعيا مرتبا على موجب النواميس الاجتماعية، حتي تصل بعـد ثمانين سنة الي درجة دولة لا تغرب الشمس عن أملاكها، هى أكبر دولة عرفها تاريخ البشر الى اليوم ؟

اذا كان محمد وهو هستيرى مريض فى رأيهم يوفق الي مثل هذه

الامور الجسام، حتي يغير سطح المعمور من حال الي حال ، مما لم تأت بمثله اقيال الفاتحين ، ولا كبار الملوك والسلاطين ، بل ولا أولوالعزم من المرسلين ، فماذا كان صانعا لو كان رسولا حقا يري الملاك ويسمع منه الوحى ؟

ولوكان هـذا حال رجل خيالي مريض شاذ الاخلاق، وعرضة لجميع الاعراض التي ذكرناها ، أى من الصنف الذى اذا رأيتـه رحمته واستعذت بالله من حاله ، فماذا بقى للصادقين الكاملين ، وللاصحاء العاملين ، من الذين اذا رأيتهم افتخرت أن تكون واحداً من أشياعهم ؟

هل عهد أحد فى تاريخ الانسانية أن المرضى المتهوسين يصلحون لقيادة أنفسهم فضلا عن التصدى لقيادة الامم وايصالها الي أوج لم تصل اليه أمة قبلها ولا بعدها ؟

هب أن الهذيان يؤى المصاب بالهستيريا الي التصدى لمثل هذه الخطة ، فهل يكون حاله فى الدعوة اليها امثل من حال المجنون يضحك من يسمعه يهذى بها ، ويستدعى غيره ليشاركه فى التاهى بما يقول ؟

هل بلغك أن العرب الجاهليين ضحكوا من دعوة محمد صلى الله عليه وسلم واتخذوها هزواً ولعبا ، أم قابلوه بالاضطهاد ، وصبوا على أشياعه ألوان العذاب ، حتي اضطروهم للهجرة الي الحبشة مرتين ، ثم الي المدينة ، وهنالك شنوا عليهم الغارات الشعواء ، وتألبوا عليهم ولم يتركوا وسيلة الا استخدموها لحل جماعتهم ، ثم انتهى أمرهم بالخضوع للنبى خضوعا لاحدله ؟

- لايستطيع أعداء محمد مهما تنطعوا فى تصيد الشبه وحيا كتها

من مختلف الاعاليل، أن ينالوا من شخصيته الفذة ، فان ماأثمرته من الثمرات مما لم يتسن مثله لمصلح بل ولا لرسول قبله، تدحض كل فرية تلفق للحط من قدرها، وتبنى لصاحبها صرحا من المجد جديداً ، وتوحى الي الذائدين عن كرامته أدلة تجعل مالفقه خصومه هشيما تذروه الرياح .

فى الفصل الآتى ننظر فى الشبهة الثالثة ان شاء الله .

هل كان محمد قاسيا وغادرا ؟

من متممات رسالة النبي صلى الله عليه وسلم تأسيس دولة اسلامية تحدث فى العالم انقلابا هو فى حاجة اليه، لبعث الامم من سباتها الذى كانت وقعت فيه بعلل شتي . ومؤسسو الدول لا معدل لهم عن الاعتماد على القوة فى قمع من يثور من الافراد، ومكافحة من يقف فى سبيلهم من الجماعات . وهـذه الخطة تمس القسوة، ويشتبه بعض أمورها بالغدر ، فيسهل على كل مرجف أن يصم كل قائد ومؤسس مماسكة بهذين الوصفين، كما فعل مؤلف كتاب (مسائل فى الدين). وقد يجد مايستدل به عليهما ولو تعسفا . ولكن المدار على مايدونه التاريخ الصحيح فى صحيفة كل عامل يستحق أن يشغل مكانا فيـه . وقد كلف الناس بنقد سير السلاطين والقادة، والذهاب فى المغالاة بصغريات أعمالهم وكبرياتها كل مذهب .

وقد غرى كثير من الفاتحين ومؤسسى الدول بأن يعرفوا بالقسوة، وشدة الوطأة، ليلقوا الرعب فى قلوب الشعوب، ويكون اسمهم مقرونا بالشر المستطير . ومنهم من كان يباهى بذلك على رؤوس الاشهاد .

فكان (اتيلا) ملك الهونيين مخرب ملك الرومانيين يتمدح قائلا : إن العشب الاخضر لاينبت حيث يطأ جواده ،

وقد حفظ التاريخ لكبارهم من حوادث القسوة والغدر ، وغلظ الاكباد ، مالا يكاد يصدقه العقل . فقد غزا بختنصر بيت المقدس وأحرق كل ماوصلت اليه يده فيه ولم يحترم المعابد والهياكل ، وأعمل السيف في أهلها ، ثم اقتاد معه من بقي من اليهود فمزق شملهم في الارض كل ممزق .

وكان الفاتح المغولى تيمور لنك يدخل المدينة فلا يبقى فيها على نسمة . وقد تخيل اهل مدينة مرة أن يقابلوه بألوف من أطفالهم حاملين المصاحف ، استنزالا لعطفه . فلما شارفهم أمر بعض جنوده بأخذها من أيديهم ، ثم اوعز لفرقة من خيالته أن يوطئوهم سنابك الخيل ، ففعلوا ، وقتلهم على تلك الصورة . وكثيراً ما كان يقيم مآذن في البلاد التي يفتحها من جماجم قتلاه ، أو يبنى اسراه وهم أحياء في أسوار المدن كأنهم بعض الاحجار .

هذا غيض من فيض من سير كبار الفاتحين ومؤسسى الدول .

أما ماروى عن القادة المتمدنين ، على تورعهم من أعمال القسوة ، وتوقيهم من سوء القالة ، فلا يمكن حصره ، ولا نضرب لك الامثال تفاديا من جرح عواطف الامم .

انفرد محمد صلى الله عليه وسلم عن جميع القادة والفاتحين ومؤسسى الممالك باقتران اسمه بالرحمة في نص لايحتمل تأويلا فقد قال الله تعالى فيه : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » وقال : « فبما رحمة من الله لنت لهم ،

ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » وقال : « وإنك لعلى خلق عظيم » . وقد نحله الله من صفاته صفتين لم ينحلهما بشراً قبله ولا بعده، فوصفه بأنه رؤف رحيم .

وقد أكثر هو نفسه من نشر خصلة الرحمة فى أشياعه، فكان يكثر من قوله : « الراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء» . وقال: «ان الله رفيق يحب الرفق » . وقال: «أتدرون من يحرم على النار يوم القيامة ؟ كل هين لين سهل قريب » .

وقد عرف صلى الله عليه وسلم بالرفق والرحمة فى جميع مواقفه الخاصة والعامة . فأما فى بيته فقد كان من الوداعة والرفق بحيث لم يؤنب خادما قط على اهمال . قال أنس بن مالك خدمت رسول الله ثمانى سنين فما قال لي قط لشيء عملته لم عملته ، ولا لشيء تركته لم تركته.

ومن آيات رحمته ورقة قلبه انه كان يسمع بكاء الطفل وهو يصلى فيسرع فى صلاته ليرى ماذا يؤذيه .

وقد امتدت رحمته على مخالفيه فى الدين مع اصرارهم على مخالفتهم فقال : « تصدقوا على أهل الاديان كلها » .

وقد شملت رحمته الحيوانات العجم، فقال اركبوها صالحة واعتملوها صالحة واذبحوها صالحة . أى غير مريضة ولا هزيلة . فكان بهذا الحديث أسبق الناس بمئات من السنين الي تقرير المراقبات الصحية على الحيوانات المعدة للركوب والاعتمال والذبح، والي تأسيس جمعيات الرفق بالحيوان . وقد شدد فى النهى عن عدم الاكتراث بأحوال الحيوانات فقال: «لا تتخذوا ظهور دوابكم مجالس» . أي لا تعضوا مدة

فى الحديث وأنتم ممتطون صهواتها لاتبالون بتعبها .

وأشد من هـذا فى الرحمة بالحيوان قوله: « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلاهى أطعمتها ولاهى تركتها تأكل من خشاش الارض » أى من حشراتها . وهذا أبلغ ماسمع من مصلح فى وجوب حفظ حقوق الحيوان والاحسان فى معاملته .

أما فى حياته العامة،وقيادته للجنود، ومزاحفته للعدو،فقد كان مثالا للرحمة والرفق،فانه سن للحروب سننا لم تكن معروفة من قبله ، فأوجب اعلانهم الحرب، وحرم على جيوشه أن تتبع المهزومين، وأن تجهز على المجروحين، وأن تقتل طفلا أوامرأة أو واحداً من رجال الدين أومتعبداً فى صومعة أوشيخاً فانياً . وشدد عليهم النكير أن يحرقوا شجراً أويهدموا بناء أويسيئوا الي أسير . بل أمرهم أن يكرموا أسراءهم فقال: « استوصوا بأسراكم خيراً »، فكان الرجل يكتفى فى غذائه بالتمر ويخص أسيره بالخبز .

وكان يحفظ العهود و يراعى شرائطها،ويأمر رجاله أن يفعلوا مثل فعله،ائتماراً بقول الكتاب: « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا » وقوله: «ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » . وقوله فى صفة المؤمنين: « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا » .

فلم يعرف عن النبى صلى الله عليه وسلم قسوة ولاغدر فى سلم ولاحرب . ولو كان قاسياً غداراً لخالف بفعله صريح الكتاب من النهى عن العدوان،والامر باتباع العدل فى قوله تعالى: «ولاتعتدوا ان الله لايحب المعتدين » وقوله: « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن

لاتعدلوا،أعدلوا هوأقرب للتقوى » أى ولاتحملكم كراهتكم لقوم على أن لاتعدلوا فى معاملتهم .

أما كراهته لاراقة الدماء بغير حق فما تضرب به الامثال ، فانه طلب اليه ازالة وثنية منحطة كانت ناشبة أظفارها فى شعب برمته ، فوقفته جامداً متحجراً آمادا طويلة، وكانت انتهت الى حالة من الخسة والاباحة لاتطاق . وهــذه خطة يعجز عنها كل مصلح . فاستخدم أولا الدعوة السلمية حتى ألف دولة، ثم عمل على الاجبار، والاجبار مشروع فى كل ملة لازالة الوثنية حتى فى المسيحية نفسها، فقدحمل الامبراطور قسطنطين الرومانيين على التنصر بالحديد والنار واستخدمت الـكنيسة القوة ضد شعوب كثيرة الى أن باد بعضها . فلم يكن دين محمد بدعا من الاديان فى هذا الباب، الا انه أحاطه من ضروب القيود بما ينم على عراقته فى الرحمة، وعلى انه خلق مثالا لـكل عمل انسانى تقوم به الاجيال التى تأتى بعده . وقد رأيت الشرائط الحربية التي ذكرناها، وزادها تأكيدا بوجوب احترام حياة من يقبل الاســلام ولوهرباً من القتل . فقد قتل بعض أصحابه من نطق بالشهادة والسيف يهوى على رأسه، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه ذلك وتبرأ الي الله من عمــل صاحبه . فقال له يارسول الله انهم يفعلون ذلك ظاهرا ليتقو القتل حين لامناص منه، ثم يعودون الى قتالنا . فقال له قد يكون ذلك، ولـكنا أمرنا أن نأخـذ بالظاهر . ولانظن أن قائد جيش، أومتصديا لتأسيس مملـكة، يتورع من سفك مثل هذه الدماء .

هذامايمكن أن يقال فى الشبهة الثالثة وفى الفصل التالي نحل الشبهة

الرابعة ان شاء الله .

هل الاسلام دين حربي تعوزه اللطافة والرقة؟

اذا قيل إن الاسلام فرض على رسوله والمؤمنين الاولين الحرب للدفاع عن أنفسهم، وازالة الوثنية من جزيرة العرب ، وانه لكونه ديناً عملياً مماشياً لسنن الوجود وتطورات الانسانية، أباح لذويه الحرب اذا دعت اليها ضرورة الاجتماع ، وهى لاتزال داعية اليها ، فهذا صحيح ، وليس عليه منه ذام ، وأشهر الاديان العالمية تشاطره هذه الصفة وتزيد عليه فيها شدة بنسبة تقدمها فى الميلاد .

فاليهودية فرضت على أهلها الحرب حفظا لوجودهم وللتمكن فى الارض، والتبسط فى الفتح. والمسيحية اضطرت فى القرن الرابع أى بعد أن أصبح لها دولة تحت قيادة الامبراطور قسطنطين الرومانى أن تستأصل شأفة الوثنية من المملكة الرومانية بالحديد والنار .

ثم لما حصلت الكنيسة على السلطة الزمنية، جعلت الحرب من وسائلها، فاتخذت الجيوش والاساطيل، وتوسعت فى ذلك الي أبعد حد . وهل يغيب عن ذاكرة أحد ماقرأه فى التاريخ عن الحروب المسماة بالصليبية التي أعلنتها المسيحية على الاسلام للاستيلاء على بيت المقدس ؟ أما كان رجالها يطوفون البلاد يدعون الناس للحرب المقدسة، فشبوها ناراً تلظى بقيت نحو قرنين، أكلت فيها مئات الالوف من الكماة المغاوير من هنا وهناك ؟

وقد وردت فى الكتب المقدسة السابقه على القرآن أوامر تعتبر

غاية فى التشديد تطالب بقهر الوثنيين وابادتهم . جاء فى الكتاب الخامس من الزبور قوله :

«اذا أدخلك ربك فى أرض لتملكها ، وقد أباد أمما كثيرة من قبلك ، فقاتلهم حتي تفنيهم عن آخرهم ، ولا تعطهم عهداً ، ولا تأخذنك عليهم شفقة أبداً » .

وكذلك أمر الله اسرائيل باستئصال سكان المدائن التي اختص بها بني اسرائيل دون أهلها الاصليين .

فالاسلام لم ينفرد كما رأيت بأنه دين حربي بالمعنى الذى ذكرناه ، ولكنه انفرد ، كعادته ، بتلطيف هذه المجازر الانسانية الي آخر حد يمكن الوصول اليه بدون اخلال بسلامة الحوزة ، فوضع للحرب حدوداً ، وشرط على الغزاة شروطا ، كلها ترمي الي احترام الدماء البشرية ، والعمل بأرقى ضروب العطف على الانسانية ، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه قد يجيء وقت تعتبر فيه الحرب من الوسائل الوحشية ، عند ماتصل الانسانية الي درجة من الرقى تسمح للمتخاصمين أن يحلوا منازعاتهم بالتحكيم ، تقززا من اللجوء الى ازهاق الارواح البشرية ، فأمر ذويه بالدخول فى هذا التطور الجديد ، واحترام رأى العالم فيه فقال : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

أنا فى هذا المقام مضطر أن أقيم الدليل على ما أقول ، ولا دليل أوقع فى النفس ، وأدل على الحق ، من شهادة رجال لا يمتون الي الاسلام بصلة ، وانما هم مؤرخون أو علماء اجتماعيون ، يعطون الحوادث الانسانية حقها من الرواية والتحليل :

قال المسيو (هنرى دوكاسترى) أحد حكام الجزائر السابقين فى كتابه (الاسلام — تأثرات ومباحث) :

« بعد أن دان العرب للاسلام واستنارت قلوبهم بهـذا الدين، برزوا فى حال جديدة أمام أهل الارض كافة، هو حال المسالمة وحرية الافكار فى المعاملات ، ائتمارا منهم بما ورد فى القرآن من الايصاء بمحاسنة الناس: بعد تلك الآيات التي كانت تنذر القبائل المارقة، كقول الكتاب : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ». وقوله : « ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » وقوله : « واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا ». وقوله : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» .

« هكذا كانت تعاليم النبي بعد أن دخل العرب فى الاسلام، وقد اقتفى أثره فيها خلفاؤه من بعده، وذلك يضطرنا الي القول بما قاله قبلنا (روبنسون): أن شيعة محمد وحدهم الذين جمعوا بين محاسنة الاجانب ومحبة انتشار دينهم. هذه العاطفة هى التى دفعتهم فى سبيل الفتح ، وهو سبب لاحرج فيه ، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه الظافرة، إذ أغاروا على الشام، وانقضوا انقضاض الصواعق على أفريقيا الشمالية من البحر الاحمر الي المحيط الاطلانطيقى، ولم يتركوا أثرا للعسف فى طريقهم (تأمل)، إلا ما كان لابد منه فى كل حرب . فلم يبيدوا قط أمة أبت الاسلام» .

ثم قارن المسيو (هنرى دوكاسترى) بين هـذا اللين والعطف

من الاسلام وبين الشــدة والروح الحربية فى الاديان التي تقدمته .
ونحن نعذرها فى ذلك مراعاة لقانون التطور، فقد كان زمانها غـير الزمان الذى نزل فيه القرآن . فنقل عن الـكتاب الخامس من الزبور قوله: «اذا اقتربت من مدينـة لتحاصرها فاعرض عليها الايمان، فان قبلته فقد سلم كل من فيها؛ وإن أبت وبادأتك بالعدوان فشدد الحصار عليها ، ومتي وفقك الله للظفر بها فاحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام »
ثم قال المسيو (هنرى دوكاسترى) :
« فـكان من وراء محاسنة المسلمين للامم المقهورة ان انتشر الاسلام بسرعة ، وعلا قدر رجاله الفاتحين ، لماسبقه من ظلم براطرة المملـكة الرومانية الشرقية، (وهى مسيحية)، التي أبغضها الناس وكرهوا الحياة فى ظلها . هذا واذا انتقلنا من الفتح الاول للاسلام الي حين استقراره، رأيناه أكثر محاسنة، وأكرم معاملة لمسيحيي الشرق كله . فما عارض العرب أبدا شعائر الدين المسيحى، بل بقيت رومية تفسها حرة فى مراسلة الاساقفة فى مختلف البلاد الاسلامية »
الي أن قال :
«وهذه المحاسنة العظيمة من جهة المنتصر للمقهور، هى التى ضعضعت الديانة النصرانية جدا، ثم زالت بالمرة من شمال افريقيا . على أن الاسلام لم يكن له دعاة يقومون بنشره ، فلم يكره على الاخذ به أحدا بالسيف ولا باللسان . بل دخل القلوب عن حب واختيار . وكان هـذا من آثار ما أودع فى القرآن من صفات التأثير والاخذ بالالباب »
الي أن قال :

« ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الاندلس حتي صاروا فى حالة أهنأ من التي كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم (الوزيجو).

« ويقول دوزى العالم الكبير أن هذا الفتح لم يكن ضاراً باسبانيا، وماحدث من الهرج والمرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة الاسلامية فى تلك البلاد ، وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتي كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء، وكثير منهم تولي قيادة الجيوش مثل (سيد) . وقد تولد من هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الامة الاندلسية الي المسلمين، وحصل بينهم تزاوج كثير » انتهى كلام المسيو دوكاسترى .

نقول أن شأن الاسلام فى جميع احوال الاجتماع مجيئه بأصول أرقى مما كانت عليه الاديان التي تقدمته سواء فى الحرب أم فى السياسة . وهذا التطور يشاهد محسوساً من المقابلة بين تاريخ المسلمين وتاريخ من سبقهم من جميع الملل .

قال الاستاذ العلامة (درابر) المدرس بجامعة نيويورك بالولايات المتحدة فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) :

« عامل العرب اليهود فى الاندلس فى ظل الحكومة الاسلامية أحسن معاملة حتي أثروا وأصبحوا ذوى مكانة عالية فى الادب والفلسفة، فلما تغلب المسيحيون على الاندلس لم يطيقوا اليهود، وأخذوا يتهمونهم باختطاف أولادهم . وفى سنة ١٤٨٧ شكلت لهم محكمة تفتيش فأحرقوا فى سنتها الاولي ألفي يهودى، ودفنوا عدة آلاف أخرى ،

وحكموا على سبعة عشر ألفا منهم بالغرامات والسجن المؤبد . وقد أحصى الذين قتلتهم هذه المحكمة فى مدى عشر سنين فبلغوا عشرة آلاف وثمانمائة وستين نسمة. وبلغ عدد الذين أمرت بتعذيبهم منهم سبعة وثمانين ألفاً ، وأحرقوا نسخ التوراة وكتبهم الادبية والفلسفية الخ الخ . ثم طردوهم من البلاد كما طردوا العرب قبلهم فهلك منهم ألوف مؤلفة جوعا وعطشاً».

هـذا قول عالم أمريكى من أشهر العلماء الاجتماعيين،فانظر بعد ذلك الي تعسف وجهل مؤلف كتاب(مسائل فى الدين) كيف غمط حق المسلمين،ووصمهم بالروح الحربية، وبأن دينهم تنقصه المحاسنة والرقة، مع انهم أتوا العالم بأصول جديدة فى هذا الباب لم تصل الى مثله أوروبا الى اليوم . فلم يسمع عن قوم قط انهم فضلوا قاهريهم على حكوماتهم الوطنية غير ماسمعناه عن الشعوب التي أخضعها العرب ، وذلك لسمو المبادىء التى أدخلوها على الاستعمار،حتي جعلوه سائغا لدى الشعوب التي تمنى به . وهذا لعمرى مجدعظيم لايستطيع ألوف مؤلفة من المرجفين أن يهدموه ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . وكلما تقادم عليه العهد ازداد ظهوراً،وتلألأ نوراً « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره».

فى الفصل التالي ننظر فى الشبهة الخامسة إن شاء الله

ألم يثبت الاسلام انه دين ترق ؟

من أشد التهم التي يوجهها بعضهم الى الاسلام بعداً عن الحقيقة ،

ومخالفة للبدهيات التاريخية والاجتماعية، قولهم أن الاسلام لم يثبت أنه دين ترق ، متظاهرين بنكران تلك الانقلابات الضخام التي أوجدها في الاجتماع والعلم والفنون والسياسة، مما لم يجسر على نكرانها مؤرخ من أى نحلة كانت ، ولم يجرؤ على اغفال ذكرها عالم اجتماعى من أى مذهب كان ؛ لاشتراك العالم كله فى التأثر بها على أقدار شتى . فاذا ساغ لكاتب أن ينكر شيئا فى الاسلام، فلا يصح له أن ينكر هذا الاثر الجلل الذى لهذا الدين ، لاأقول فى حماية العلوم والفنون. ولكنى أقول فى حفظ تراث العالم الانسانى جميعه منها ، بعد ما كادت تلعب بها أيدى الاهمال ، ثم الذهاب بها الي حد بعيد من الترقى، والقيام بنشرها فى الخافقين، حتي أن إبلال أوربا من داء التحجر الشنيع كان بسبب مانشره الاسلام فى أرجائها من أشعتها المحيية . وكيف لا يكون ماأوجده الاسلام انقلابات حقيقية ، وهو قد أشاد بذكر العلم حتي جعله مناط السعادة فى الدنيا والآخرة فقال تعالي: «هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون» ؟ وقال : «وتلك الامثال نضربها للناس ومايعقلها الا العالمون» بكسر اللام. وقال «وماأوتيتم من العلم الاقليلا» . وقال : « وقل رب زدنى علما » .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» . وقال: «خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت» . وقال: «من علم علما فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » . الي آيات وأحاديث لاينالها العد ، فهل من عجب بعد هذا اذا اندفع المسلمون وراء تحصيل العلم اندفاعا لايوجد في تاريخ الجماعات مايشبهه

حتي أصبحت عواصمهم بعد ردح من الزمن عواصم للعلوم والفنون ، ورجالهم أئمة للآراء والمذاهب .

يحسن بي بعد هذا أن أستشهد ثقات المؤرخين، والعلماء الاجتماعيين من الاوروبيين والامريكيين، ليكون الدليل أشد وقعاً وأدعى للتسليم فأقول :

قال العلامة (درابر) المدرس في جامعة نيويرك في كتابه (المنازعة بين العلم والدين):

« ان اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة (٦٣٨) ميلادية أى بعد موت محمد بست سنين، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتي استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية وقدروها قدرها الصحيح .

إلي أن قال : « ولما ولي الخلافة أبوجعفر المنصور من سنة (٧٥٣ الى ٧٧٥) م، نقل عاصمة الملك الي بغداد وجعلها عاصمة نخمة ، فلم يأل جهدا في بذل الوسع في نشر العلوم الفلكية ، وتأسيس مدارس الطب والشريعة . ولما تولى حفيده هرون الرشيد سنة (٧٨٦)م، اتبع أثر جده في هذه الفتوحات العلمية، وأمر باضافة مدرسة الى كل مسجد في جميع أرجاء ملكه . ولكن عصر العلم الزاهر في القارة الاسيوية لم يشرق الا في خلافة المأمون الذى تولي الخلافة من سنة (٨١٣ الي ٨٣٢) م، فانه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى، وجمع اليها كتبا لاتحصى ، وقرب اليه العلماء، وبالغ في الحفاوة بهم .

« هذا المركز الذى اكتسبه العرب وهذا الذوق السليم فى العلم استمر لديهم حتى بعد أن انقسمت ممالكهم الى ثلاثة أقسام . فان العباسيين فى آسيا والفاطميين فى مصر والامويين فى اسبانيا لم يكونوا متناظرين متنافسين على الحكومة فقط ، بل كانوا كذلك فى الآداب والعلوم أيضاً .

« ذاق العرب فى الفنون الادبية كل ما من شأنه أن يحد القريحة ويصقل الذهن وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت الامم كلها مجتمعة . أما فى العلوم فقد كان تفوقهم فيها ناشئاً من الاسلوب الذى توخوه فى المباحث وهو أسلوب أخذوه عن فلاسفة اليونان الاوربيين ، فانهم قد تحققوا أن الاسلوب العقلى النظرى لا يؤدى الي التقدم ، وان الامل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها ، ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الاسلوب التجريبي والدستور العملى الحسى ، وكانوا يعتبرون الهندسة والعلوم الرياضية أدوات ومعدات لعلم المنطق . وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكا والايدروستاتيك (علم توازن السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) ونظريات الضوء والابصار انهم قد اهتدوا الى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات .

« هذا هو الذى قاد العرب الي أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمستكشفين لعدة آلات للتقطير والتصعيد والاسالة (اسالة الجوامد) والتصفية الخ . وهذا بعينه أيضاً هو الذى جعلهم يستعملون فى أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة

والاسطرلابات (هى آلات لقياس ابعاد الكواكب) ، وهو أيضا الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته ، وهو الذى هداهم لعمل الجداول عن الاوزان النوعية للاجسام والازياج الفلكية (هى جداول تعرف منها حركات الكواكب) مثل التى كانت فى بغداد وقرطبة وسمرقند ، وهو أيضاً الذى أوجد لهم هذا الترقى الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات ، وهو أيضا الذى هو بهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الارقام الهندية ، هذا هو ثمرة تفضيلهم لاسلوب ارسطو الاستدلالى على مقالات أفلاطون الاستنتاجية .

«ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منتظمة لاجل أن يتصلوا الي تكوين المكاتب التي تكلمت عنها . الي أن قال : « وقد اشتملت مكتبة خلفاء الاندلس على ستمائة الف مجلد ، وكانت قائمة اسمائها وحدها واقعة فى أربعة وأربعين مجلداً . وغير هذا فقد كان بالاندلس سبعون مكتبة عامة وكثير من المكتبات الخاصة »

الي أن قال درابر نفسه :

« أما المؤلفات الحديثة فقد كان من عادة أساتذة الجامعة أن يؤلفوا كتباً فى الفروع العلمية التى تطلب منهم . وكان لكل خليفة مؤرخ خاص يكتب تاريخه .

« ولقد كتبوا فى كل فن وفى كل علم كالتاريخ والشريعة والسياسة والفلسفة وتراجم الرجال وتراجم الخيول والابل ، وكل هذه المؤلفات كانت تنشر بدون رقابة ولاحجر . ومايعلم من المراقبة على الكتب

اللاهوتية فقدحدث فيمابعدهذا التاريخ . وقد كانت الكتب الزاخرة بالمعلومات التي تصلح لان تتخذ مادة كثيرة جداً فى الجغرافيا، والاحصاءات والطب والتاريخ وقواميس اللغة. وكان لديهم دائرة معارف علمية ألفها محمد أبوعبد الله . وكان للعرب ذوق دقيق فى صنع الورق النظيف الناصع البياض ؛ وفى اعطاء المداد الالوان المختلفة ، وفى زخرفة وجوه الكتب بتشبيك تلك الالوان المختلفة من المداد، والابداع فى تنميقها وتذهيبها على صور شتى.

«كان الملك الاسلامى العربى يغص بالمدارس والمكتبات،وكانت بلاد المغول والتتار ومراكش والاندلس حاصلة على عدد عديدمنها . وكان فى طرف من أطراف هذه المملكة الواسعة،التي فاقت المملكة الرومانية كثيرا،مرصد فى سمرقند لرصد الكواكب وكان يقابله فى الطرف الآخر مرصد جيرالد فى الاندلس .

« ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى، لخرجنا عن حدود وهذا الكتاب، فانهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جداً (تأمل)، واوجدوا علوما جديدة لم تكن معروفة قبلهم .

ثم قال :

« الفلكيون من العرب قد اهتموا أيضاً بتحسين آلات الارصاد وتهذيبها وبحساب الازمنة بالساعات المختلفة الاشكال،والساعات المائية،والسطوح المدرجة الشمسية . وهم أول من استعمل البندول (الرقاص) لهذا الغرض .

« أما فى عالم العلوم التجريبية فقد اكتشفوا الكيمياء وبعضاً

من محللاتها الشهيرة حمض الكبريتيك وحمض النتريك والكحول .

« استخدم العرب علم الكيمياء فى الطب، لانهم أول من نشر علم تحضير العلاجات والاقرباذينات واستخراج الجواهر المعدنية .

« أما فى علم الميكانيكا فانهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الاجسام . وكانوا عارفين كل المعرفة بعلم الحركة .

« أما فى الايدروستاتيك فقد كانوا أول من عمل الجداول المبينة لضروب الاوزان النوعية ، وكتبوا أبحاثا عن الاجسام السابحة والغائصة تحت الماء .

« أما فى نظريات الضوء والابصار فقد غيروا الرأى اليونانى الذى مقتضاه أن الابصار يحصل بوصول شعاع من البصر الي الجسم المرئى، وقالوا بعكس ذلك أى أن الابصار يحصل بوصول شعاع من المرئى الي العين ، وكانوا يعرفون نظريات انعكاس الاشعة وانكسارها، وقد اكتشف الحسن الشكل المنحنى الذى يأخذه الشعاع فى سيره فى الجو ، وأثبت بذلك اننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة فى الافق، وكذلك نراهما فى الغرب بعد أن يغيبا بقليل.

« ان نتائج هذه الحركة العامية تظهر جليا بالتقدم الباهر الذى نالته الصنائع فى عصرهم، فقد استفادت منها فنون الزراعة فى أساليب الرى والتسميد وتربية الحيوانات وسن النظامات الزراعية الحكيمة، وادخال زراعة الارز والسكر والبن ، وقد انتشرت المعامل والصنائع لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن . وكانوا يذيبون المعادن ويجرون فى عملها على ماحسنوه وهذبوه من

صنعها وسبكها .

«واننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر ، من ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهبا حديثا، كان يدرس فى مدارسهم. وقد كانوا ذهبوا منه الى مدى أبعد مما وصلنا اليه، وذلك بتطبيقه على الجامدات والمعادن أيضاً » انتهى كلام (درابر) .

وقال العلامة الدكتور (جوستاف لوبون) الفرنسى فى كتابه (تمدن العرب) :

«العرب مع ولوعهم بالابحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع. فقد أكسبت علومهم لصنائعهم جودة عظيمة جداً . واننا وان كنا لم نزل نجهل أكثر الطرائق التى سلكوها لذلك ، إلا أننا نعرف نتائجها وآثارها ، فنعرف مثلا انهم احتفروا المناجم واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب ، وانهم برعوا جداً فى الصياغة ومهروا فى صقل انفولاذ مهارة بعيدة المدى ، وانهم فى كثير من فنون الصنائع قد برعوا براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن (تأمل) .

وقال العلامة (جيبون) المؤرخ الانجليزى المشهور عند ذكره الحماية والرعاية التي بذلها المسلمون للعلوم :

« كان من أثر تنشيط الامراء المسلمين للعلم أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة التي بين سمرقند وبخارى الي فاس وقرطبة . ويروى عن وزير لاحد السلاطين أنه تبرع بمائتي ألف دينار لتأسيس

كلية علمية فى بغداد ووقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنويا، وكان عدد طلبتها ستة آلاف لافرق فيهم بين غنى وفقير » الخ الخ .

وبعد فأقول لو أردت نقل مايقع تحت يدى من أقوال المؤرخين والعلماء الاجتماعيين فى هذا الباب لملأت مجلدات ضخمة، فلأكتف بما قدمت فانه يكفى فى دحض قولهم أن الاسلام لم يثبت انه دين ترق .

المرأة والرق فى الاسلام

قال صاحب كتاب (مسائل فى الدين) فى معرض انتقاده الاسلام انه يجيز الرق وتعدد الزوجات ويسهل الطلاق للرجل، وان ماتعانيه المرأة المسلمة من حالتها السيئة يعود اليه ، فنرد على هـذه الشبهات على حسب ترتيبها فنقول :

وجد الاسترقاق منذ وجد الانسان ، فان القوى يغلب الضعيف ويستعبده . وقـد شوهد الاسترقاق لدى بعض طوائف الحيوانات وأخصها النمل؛ فان بعض أنواعـه يأسر البعض الآخر عقب إغاراته عليه ويستخدمه .

وقد كان المصريون الاقدمون والبابليون والبراهمة الهنديون والفرس يتخذون الرقيق ويعاملونه بقسوة .

وكان اليونانيون يتخذونه أيضاً ، وقد أقره أرسطو وأفلاطون وغيرهما من كبار الفلاسفة الاغريق الاولين .

أما الرومانيون فقد توسعوا فى الاسترقاق الى حد بعيد . واتفقت جميع الامم القديمة على معاملة الارقاء بأشد ضروب القسوة ، وعلى الحصول

على الرقيق بكل الوسائل الممكنة لا فرق بين مشروع وغير مشروع .

وقد أقر الاسرائيليون الاسترقاق على ما كان عليه ولم يتناولوه بأقل تغيير .

ولما جاءت الديانة المسيحية أقرت الاسترقاق وعدته شرعياً . جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر فى صفحة ٨٦٥ من المجلد السابع :

« الديانة المسيحية لم تستنكر الاسترقاق فى ذاته ، ولم تعمل على إبطاله ، فان شرعيته لم تكن قط لديهم موضعاً للبحث » انتهى .

ولدينا نصوص عن بعض القديسين يشيرون فيها على العبيد بوجوب اطاعة ساداتهم والصبر على حالاتهم ، ويذكرون لهم بأن استرقاقهم مستند الي أصول إلهية .

وقد ذكر العلامة درابر الاستاذ بجامعة نيويرك بأمريكا أن آباء الكنيسة كانوا يكاثرون الكونتات فى اقتناء الارقاء .

وأول قانون صدر لتخفيف ويلات الاسترقاق كان قانون الامبراطور بترونيا الرومانى ، وهو يحرم على السادة الزام أرقائهم بمقاتلة الوحوش إلا باذن من القاضى .

وفى عهد الامبراطور انتونان الرومانى صدر أمر يقضى بأن من يقتل عبده يعاقب بغرامة .

ثم صدر قانون على عهد الامبراطور كلوبوس يعتبر فيه قاتل العبد مرتكباً لجناية القتل ومات هذا القانون بموته .

وأول قانون صدر فى شأنهم بعد القرون الوسطى كان سنة (١٦٨٥) وقد نص فيه علي انه اذا اعتدى أحد الزنوج بأقل اكراه على سيده

أوأحد الاحرار أوارتكب أخف السرقات فان جزاءه القتل .

وقد أصدر الانجليز فى ذلك العهد قانونا بأن العبد اذا أبق واستمر فى اباقه أكثر من ستة أشهر فجزاؤه القتل .

وصدر فى عهد الملك لويز الرابع عشر الفرنسى أى فى القرن الثامن عشر قانون جاء فيه هذه العبارة : « ان من توفية حق النظام أن لا نتنازل عن احتقار الجنس الاسود مهما كانت منزلته ، وقد حصل التصميم على ابقاء الحكم الاعتبارى الذى يحرم ذوى الالوان وذريتهم من مزايا الجنس الابيض الي أبد الابيد » .

هذا كله كان حاصلا فى أوربا وأمريكا حتي سنة (١٧٨٠) ثم استمر الى سنة (١٨٨٠) حيث قامت انجلترا بحملتها لابطال الاسترقاق.

أما الاسلام فقد كان مجيئه عهداً ميمونا للارقاء كما كان عهداً ميمونا للعالم كله . فهو لم يكتف بالتوصية بهم والتلطف فى معاملتهم، ولكنه ساواهم بالاحرار، وقرر أن من قتل عبداً قتل به؛ وجعل للارقاء حقوقا فى مستوى حقوق الاحرار.

صدور مثل هذا التشريع فى جزيرة العرب ، وناهيك بتغلغلها فى الاسترقاق وامتهان الارقاء يعتبر من أدل الدلائل على سماوية الاسلام. فلا القرن الذى أنزل فيه ، ولا عادة العرب فى ذلك العهد، ولا الرأى العالمى العام فى الاستخفاف بالعبيد، كان مما يسهل صدور نصوص فى شريعة كالشريعة الاسلامية تخالف هذا الاجماع المحبوك الاطراف وتهب للاسرى الذين ليس لهم من يطالب بحقوقهم الضائعة حقوقا لم يمثلها مشترع الي اليوم !

اعترف الاسلام قبل كل شيء بأن الابيض والاسود سواء، كما أن العربي والاعجمي سواء كذلك أمام القانون، فقال عليه الصلاة والسلام: « لا فضل لعربي على أعجمي ولا لابيض على اسود الا بالتقوى أو بعمل صالح»، فهدم بهذا الاصل الاصيل حوائل الالوان التى كانت تحول دون أقرار العدل فى نصابه فى جميع البلدان.

ثم قرر للارقاء الحقوق نفسها التي للاحرار، بل جعل للارقاء — وهو أمر مدهش ودال على غاية التلطف بالضعفاء — مزايا ليست للاحرار، وذلك أن العبد اذا ارتكب جريمة فعليه نصف ما على الحر من العقاب!

نعم أقر الاسلام الاسترقاق وهو بذلك قد سلك طريقته فى أخذ الامور الاجتماعية بسنة التدريج، لانه كان لا يستطيع ابطال أمر أجمعت عليه الامم كافة كأساس من أسس العمران، وارتضته جميع الاديان، وكان متأصلا فى الامة العربية الى حد بعيد، ولكنه حيال هذا الاقرار عمد الي تأصيل أصول تعتبر مهيئة لالغائه بدون حرج، حين يقتضى نظام الاجتماع ذلك. وهى (أولا) ايصاؤه بهم فى مواطن كثيرة من الكتاب والسنة، فقال تعالي: « وبالوالدين احسانا، الي قوله: وماملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا ».

وقد بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الايصاء بهم حتي قال وهو يجود بنفسه: « الصلاة وماملكت أيمانكم ».

(ثانيا): مساواتهم بالاحرار، ورفع ما بينهم من التمايز فى الحقوق، وحكمه باخوتهم الانسانية لساداتهم، فقال عليه الصلاة والسلام:

« اخوانكم خولكم (أى ان أرقاءكم الذين يتخولونكم بالخدمة اخوانكم)) جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس » :

وبما أنهم أصبحوا للاحرار اخوانا بحكم هذه الشريعة الالهية ، فلا يصح أن يدعو السيد رقيقه عبداً ولا رقيقته أمة، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا يقل أحدكم عبدى ولا أمتي ولكن ليقل فتاى وفتاتى وغلامى » .

وزاد النبي صلى الله عليه وسلم الارقاء إيصاء بهم فحسن للناس تعليمهم وتزويجهم فقال : « من كانت له جارية فعلمها وأحسن اليها وزوجها كان له أجران » .

سرت هذه التعاليم فى المسلمين الاولين، وجرى عليها النبي صلى الله عايه وسلم بالعمل ، فولي بلالا وأصله رقيق حبشى المدينة، وفيها وجوه العرب وساداتهم . وولي مولاه أسامة بن زيد قيادة الجيش وفيه ابو بكر وعمر .

ورأى أبو هريرة رجلا على دابته وغلامه يسعى خلفه فقال له : « احمله خلفك ياعبد الله، فانما هو أخوك وروحه مثل روحك » .

ولما ذهب أمير المؤمنين عمر الي الشام ليبرم معاهدة مع أهل دمشق استصحب رقيقاً له، فكان يركب هو مرحلة، ثم ينزل ويأمر رقيقه بالركوب ويمشى خلفه . ولما وصل الى دمشق كان الدور فى الركوب لغلامه فقابل الناس على هذه الصورة .

وقد أرسل أبو عبيدة القائد العام لجيش أبي بكر فى الشام جنوداً

لفتح مدينة وجعل قائدهم زنجياً، تأسيا بما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعث عمرو بن العاص الي المقوقس، عظيم القبط فى مصر، وفداً ليتخابر معه فى أمر الصلح على رأسه عبادة بن الصامت وهو زنجى اسود، فلما وقعت عين كبير القبط عليه، قال نحوا عنى هذا الاسود وقدموا غيره . فقالوا جميعاً : « ان هذا أفضلنا رأيا وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا » .

وقد وصل الارقاء لدى المسلمين الي أعلى المناصب فكانوا وزراء للدولة وتولوا الملك أيضاً .

علمنا كل هذا، وهو أغرب ما ترويه فى تاريخ الاسترقاق، فهل عمل الاسلام على حصر دائرته، وهيأ العوامل لابطاله، حين يصبح فى عرف الاجتماع أمراً مستنكراً ؟

نعم، فانه حصره فى دائرة الحروب المشروعة، وعاق أمره بولي الامر، ومعنى هذا أن لا استرقاق إلا فى حرب . أما ما يجتاب بوساطة النخاسين من طريق الاختطاف والتصيد، فلا يجيزه الشرع الاسلامى ولا يعتبره . حتي ان أحد العلماء العاملين أراد فى القرون الاخيرة أن يشترى عبداً فأعوزه، لعدم انطباق ما لديه من نصوص الشريعة على من قدموا اليه بدعوى أنهم أرقاء وما هم الا مختطفين من أحضان أهليهم .

وقد جعل الاسلام أمر الاسترقاق فى يد حاكم المسلمين، تذرعاً لبطلانه حين تستعد الشعوب لذلك . فان للحاكم أن يتخذ الاسرى، وأن يقبل منهم الفدية، وأن يمن عليهم بالحرية بعد أن تضع الحرب

أوزارها . فليس هنالك تحتيم فى استرقاقهم فان وصل الناس الي مستوى من الشعور يستنكرون فيه الاسترقاق فما على حاكم المسلمين إلا الامتناع عن اجازته، فيبطل كما حصل منذ أن عمت الدعوة بالكف عنه، فان المسلمين قابلوا هذه الدعوة بقبول حسن ولم يروا فيها منافاة للشريعة، شأنهم فى كل تجديد يراد به خير الانسانية .

هذا كله يعتبر من الانقلابات التشريعية التي لم تطف بخيال أكبر المشترعين، ولا أجل الفلاسفة فى عصر من العصور . فهل يصح بمؤلف أن يقلب هذه الحقائق الضخمة فيصم الدين الذى مصدره هـذا النور الباهر بانه كان يؤيد الاسترقاق ويعمل على نشره ؟ وقد أريتك من سيرته حياله مايصغر فى عينيك كل عظيم فى العالم الانسانى لم يفكر فى مثل مافكر فيه خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وحده ؟

الطلاق وحقوق النساء فى الاسلام

ليس فى تاريخ التطوارت التشريعية ماهو أعجب مما أحدثه الاسلام فى الشؤون النسوية، فقد أوجد فى حالتها انقلاباً لايزال بينه وبين أرقي الامم بون بعيد.

ماذا كانت حالة المرأة فى القرن السابع للميلاد وهو العهد الذى بعث فيه خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ؟

كانت المرأة مستعبدة فى كل مكان ، وليت ذلك كان بالمعنى المعروف للعالم اليوم ، ولكنها كانت ضحية للغطرسة والقسوة الي أبعـد الحدود .

فلا أقول انها كانت محرومة من جميع الحقوق الطبيعية، وكانت مملوكة لزوجها الخ الخ، فهذه كلها عبارات لا تؤدى ما كانت عليه المرأة فى أوروبا وفى العالم كله . انها إذ ذاك كانت أقل من أن يؤتى بجانب اسمها بكلمة حقوق ولو فى معرض النفى، لانها كانت معتبرة جسداً لا روح له !

نعم انه قد اجتمع مجمع كبير فى رومية وبحث فى شؤون المرأة فقرر انها كائن لا نفس له، وانها لن ترث الحياة الاخروية لهذه العلة ، وانها رجس يجب أن لا تأكل اللحم، وأن لا تضحك، بل ولا أن تتكلم، وعليها أن تمضى جميع أوقاتها فى الصلاة والعبادة والخدمة .

ولاجل أن يمنعوها الكلام جعلوا على فمها قفلا كانوا يسمونه موزلير (*Muselière*)، فكانت المرأة من أعلى الاسر وادناها تسير فى الطرقات وفى فمها قفل ، وتروح وتغدو فى دارها وفى فمها قفل ، قفل من حديد ! وهذا غير العقوبات البدنية التى كانت تعرض لها المرأة باعتبار انها اداة الاغواء، وآلة التسويل، يستخدمها الشيطان لافساد القلوب، (راجع المجلد الحادى عشر من مجلة المجلات الفرنسية) .

أما فى بلاد العرب فكانت المرأة فى عداد البهائم، تورث مع ماشية زوجها وتصبح ملكا لورثته ، وكانت تجبر على الفسق والتهتك، لتزيد فى ثروة المسيطر عليها، وكان للرجل أن يختار من النساء العدد الذى يرضاه لنفسه بلا تحديد .

وهل كان لها حق من الحقوق المعروفة الآن ؟ لا ، حتي ولا فى وراثة أبويها ، وهل ترث بهيمة مجردة من الروح ؟

نعم رويت عن العرب أشعار فى الغزل والتشبيب ، ولـكن هذا كان لايعـدو المناطق البهيمية من النفس ، وقد كان العربى يتغنى بفضائل ناقته وحصانه،وهذا ما كان ليمنعه أن يطلق سراحهما ليموتا جوعا متي بلغا الدور الذى لاينفعانه فيه .

جاء الاسلام والعالم على ماوصفت لك،فـكان بمجيئه عهد انقلاب فى تاريخ المرأة لم يسبق له مثيل فى أطوار أمة من الامم .

نعم أدرك نساء روميه عهداً فى أواخر عهدها بالوجود يحتمل أن يعده بعضهم عهداً ذهبياً لهن ؛ والواقع أنه كان من أتعس العهود عليهن وعلى دولتهن . فقـد كانت فـدت نفوس الرومانيين فى ذلك العهدبطراً من سعة السلطان الذىأوتوه،الىحدانهمأصبحوا لايحلمون فيه بغـير المتع الجسدية؛ واللذات البهيمية ؛ فأطلقوا للنساء العنان لاليـكن نساء كاملات يقمن على أحكم الاصول ، و يربين أولادهن على أرقي المبادىء ، لا ، ولـكن ليـكن آلات شهوات، وأدوات بذخ وخلاعة . قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر :

« فى الايام الاولى من الجمهورية الرومانية كانت المرأة ملازمة بيتها تغزل فيه الصوف ، ولـكن البذخ تسرب الى رومية شيئا فشيئا حتي قام (كاتون) ينذر بالخطر المحدق الذىسيلتهم كل شىء . وبعد ذلك بقليل لم يقف البذخ والترف عند حد »

ثم أردفت دائرة المعارف ذلك بقولها : « ان كاتون لم ينجح فى دفاعه عن ذلك القانون، (القانون المانع لتهتك المرأة)، ولـكن انذاراته تحققت تماما »؛ أيأن الدولة الرومانيـة زالت من الوجود

وانقلبت حالة المرأة فدخلت فى دور من الاسر لازمها نحواً من ألف سنة حتي ولد العلم فعمل على انقاذها منـه يسيراً يسيرا حتى تم لها مايراها الناس عليه اليوم.

ولـكن الاسلام أحدث انقلابا فى حالة النساء لا من ناحية اتخاذهن آلات للشهوات ، ولـكن من ناحية احياء حقوقهن الطبيعية ، واحلالهن من المجتمع فى المـكان اللائق بهن ، حيث تظهر خصائصهن وتشرق مزاياهن ، ليتم للمجتمع جميع عوامل التـكمل والوصول الي أبعد غايات الترقيات الاجتماعية . فأصل لبلوغ هذه الغاية أصولا جعلها فى مستوى العقائد الاولية . منها أن المرأة والرجل عضوان متـكاملان خلقا ليؤلفا الاسرة ، ويعيشا على أكمل حال من التواد والتعاطف ، فقال تعالي : « ومن آياته أن خلق لـكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة »

وبما أن هذا الجنس من أنفسنا أى منا كان جديراً أن يكون له مالنا وعليه ماعلينا : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى فلنحيينه حياة طيبة . ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »

نعم وقد راعى الشرع الاسلامى ذلك فجعل لهن حقاً فى الميراث ، ووهبهن جميع الحقوق المدنية التي للرجال ، حتي حق التملك والتعامل على ضروبه كافة ، وفتح لهن جميع باحات العمل من تجارة وصناعة الخ ولم يوصد فى وجوههن باباً من أبواب الحياة ، غير باب التبرج والتهتك . وليس فى العالم من يلومه على ذلك ، ولا نظن أنه يأتى جيل يلومه عليه ، مهما توسعت الانسانية فى محاباة المرأة .

اذا كانت الديانة الاسلاميـــة اعتبرت المرأة انساناً فى مستوى الرجل،فهل أباحت لها ترقية مواهبها العقلية، أم وضعت أمامهاحداً لاتتعداه، كمافعل العالم كله الى ماقبل قرن واحد فقط ؟ أليست كانت الامم تحرم عليها دخول الجامعات،وتوصد فى وجهها باب التعليم العالي فى كل مكان ؟

نعم أباحت الشريعة الاسلامية للمرأة التعلم ، بل جعلته فريضة عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، بهذا النص صار الاسلام أول من قرر تعميم التعليم بين الجنسين على السواء ، وكان التعليم قبله محصورا فى طبقة الاغنياء والمستبدين بالشعوب ، ولم تجعل الشريعة له حدا، فللمرأة أن تبلغ منه الحد الذى تريده ، وقد وصل بعض النساء الي اعلى الدرجات فيه.

أليس من المدهش أن يكون الاسلام قدأباح للمرأة،متي وصلت الي حدبعيد من العلم،أن تكون قاضية ومفتية،وأن تتولي التعليم العالي؟

نعم كل هذا كان فى الاسلام،وأشد منه موجباً للدهش،انه أمر بأن تشهد المسلمات الصلوات فى المساجد،وشؤون المسلمين العامة التي كانوا يجتمعون فيها بدعوة أمرائهم لتقرير التدابير الضرورية، حيال أى طارىء من الطوارىء الاجتماعية،أولأخذ رأى الناس فى سن سنة جديدة للمجتمع . لذلك كن يحضرن فى تلك المجامع ،وقدحدث مرة أن رأى أمير المؤمنين عمر أن يستشير الناس فى تحديد صداق النساء للحيلولة دون المغالاة فيه . فلما أفضى برأيه الي الناس وهو على المنبر، تصدت له امرأة وناقشته فيه فعدل عن رأيه الى رأيها.

أفلا يمكن أن تعد هذه سابقة فى الاسلام اذادعانا داعى التطور الاجتماعى فى يوم من الايام أن نمنح نساءنا حقوق الانتخاب والحصول على النيابة فى الهيئات التشريعية ؟

ومما اختص به الاسلام الذهاب فى احترام الحقوق الطبيعية للمرأة الي حدود لم تدر فى خيال مشترع مدنى الى اليوم .

فالاسلام لم يكلف المرأة، وهى زوجة، بأى حق تؤديه للرجل غير حفظ عرضه، وطاعته فى المعروف باعتبار انه الرئيس الطبيعى للاسرة . فلم تكلفها الشريعة الاسلامية بخدمته، ولا بخدمة أولادها، ولا بخدمة نفسها أيضاً ، بل ولا بارضاع أولادها ولاحضانتهم ، ولكن الزوج ملزم بأن يوجدلها من يخدمها ، فان كان فقيرا تولي هو القيام بحاجاتها . فان ولد لهما طفل فعليه أن يستأجر له مرضعا وحاضنة ، فان قبلت والدته أن ترضعه وتحتضنه كان لها على ذلك أجر ان اجر الارضاع وأجر الحضانة ، إلا اذا كان الزوج فقيراً فيتسامح له الشرع فى أمر هـذا الحق بضرورة الحال .

والمرأة المسلمة بتزوجها لاتفقد من استقلالها المالي شيئاً، فتظل على حريتها فى التصرف بمالها وأملاكها، وليس عليها أن تتقيد برأى زوجها فى معاملاتها الاقتصادية، فتبيع أملاكها أو تؤجرها أوترهنها لاتصدر فى ذلك كله إلا عن إرادتها الشخصية .

هذا الحق لم تنله المرأة الغربية الي اليوم ، فانها بزواجها تقع، من ناحية تصرفاتها الاقتصادية تحت وصاية زوجها، فلا تستطيع أن تبيع أوتشتري أوترهن شيئا من أملاكها إلا بتصديق زوجها، فان القانون

يهبه حقاً على أملاكها ليس لابويها ولا لاحد أقربائها ، ولا شك فى أن هذا بقية من بقايا أسر المرأة فى الازمنة المظلمة .

هذه الحقوق الممنوحة للمرأة المسلمة لم تحلم بها أية فلسفة الي اليوم ، وقد منحها الاسلام للمرأة لاجزافا ولكن لرفع نير العبودية عنها،وهو النير الذى لاتزال تحمله جميع نساء العالم الي اليوم ، وبقصد وضع حقوقها الطبيعية موضعاً شرعياً لايمكن نقله ولا تأويله .

فلو كان الاسلام يعتبر المرأة رقيقة لزوجها، أولو كان لا يعتد بحقوقها من ناحية عملية، لما قرر فى أمرها هذه الاصول التي لا يوجد فى العالم الاسلامى من ينكرها أو يتأول فيها ، وقد أجمعت المذاهب الفقهية عليها اجماعا لا يتطرق اليه الضعف من أية ناحية .

أن الفيلسوف ليتولاه العجب،وتأخذمنه الحيرة كل مأخذ،اذا نظر الي هذه الحقوق النسوية نظرة تشريعية واجتماعية محضة، وعلم أن مصدرها بلاد العرب ، تلك البلاد التي كانت تمتهن فيها المرأة امتهاناً لامذهب بعده . فلا حالة المرأة فى العالم كله، ولا حالتها فى البلاد التي صدرت منها هذه الشريعة، كانت فى القرن الذى أنزل فيه الاسلام توحى الي أى مشترع ،حتى فى الامم التي دخلت فى أرقى الادوار التشريعية، اصدار مثل هذه الاصول التي لم تصل اليها المرأة من أية نحلة كانت الى عهدنا هــذا .

لاجرم أن هذا من أدل دلائل الوحى الالهى، لان العقل المجرد لا يستطيع أن يتعدى المناطق التي رسمتها له الحوادث،وحدتها الاحوال المحيطة به .

بقيت مسألتا الطلاق وتعـدد الزوجات ندخرهما للفصل التالى ان شاء الله .

الطلاق وتعدد الزوجات فى الاسلام

الاسلام لم يوجد الطلاق ولـكنه جاء فألفى العالم كله عليه منذ القدم، الأمة أو أمتين فقط . فكان الرجل اذا غضب على احدى نسائه طردها من داره لتذهب حيث تشاء دون أن يجد نفسه مطالباً حيالها بأى حق .

ولما نبه ذكر الامة اليونانية، وازدهرت حضارتها ، كان الطلاق شائعاً فيها بلا قيد ولا شرط .

وكان الطلاق لدى الرومانيين معتبراً من كيان الزواج نفسه، حتي أن القضاة كانوا يحكمون ببطلان الزواج إن اشترط كلا الطرفين عدم الطلاق فيـه .

وكان الزواج الدينى لدى الاجيال الاولي للرومانيين يحرم الطلاق ولـكنه فى مقابل ذلك كان يمنح الزوج على امرأته سلطاناً لاحد له، فيبيح له أن يقتلها ان فجرت، أو إن قتلت بعض أولادها، أو قلدت مفاتيح الدار، أو أدمنت الخمر . ثم رجعت دياناتهم فأباحت الطلاق كما كان مباحا أمام القانون المدنى .

لما جاءت الديانة الموسوية حسنت من حالة الزوجة ولـكنها أباحت الطلاق وتوسعت فى اباحته ، وكان الزوج يجبر شرعا على أن يطلق امرأته ان ثبتت عليها جريمة الفسق، حتي ولو غفر لها هو تلك الجريمة . وكان

القانون يجبره أيضا على أن يطلق امرأته ان لبثت معه عشر سنين ولم تأته بذرية ، حتي ولو كان يؤثر البقاء معها .

أما المسيحية فقررت عدم جواز الطلاق الا بسبب ثبوت جريمة الفسق، أوطلبا للنسل فى حالة ثبوت العقم .

فاما شرع الاسلام أقر امكان الطلاق مع التكريه فيه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « ان أبغض الحلال الي الله الطلاق » . وهو انما أباحه اذا وصل الزوجان الي درجة من التباغض لا تمكن معها المعاشرة ، راميا بذلك الي ضرورة سيادة التواد والتراحم فى الاسرة ، معترفا بأن فى الحياة منازعات لا يحسمها غير الفراق . ولكنه فى حالة الطلاق حاط المرأة بكل مايعقل من ضروب الحماية، فجعل من واجبات الزوج أن يسرحها باحسان، وأن لا يرهقها أو يسلبها أمتعتها ، وعليه ان يوفيها بمؤخر صداقها، وعليه أن ينفق عليها حتى تنقضى عدتها، ولا يكون لديها مانع من التزوج بسواه . فان ادعت انها لم تر الطمث كان على الزوج أن ينفق عليها حتى تعترف بأنها رأته ، ولو لبثت على انكارها سنين، كما هو مؤدى مذهب أبي حنيفة . وهذا ضرب من ضروب الحماية للمرأة، لم يسبق له مثيل فى ملة من الملل، والغرض منه كبح الرعونة الرجلية عن الاستخفاف بأمر الزوجية، واللعب باباحة الطلاق على مايمليه الهوى .

وقد أوصى الاسلام قبل ايقاع الطلاق أن يلجأ الزوجان الى التحكيم لاصلاح ذات البين، فان لم يتسن للحكمين التوفيق بينهما عمدا الي الطلاق باعتبار انه المخرج الوحيد من الحرج بين الزوجين .

فالطلاق فى الاسلام كما ترى مضيق عليه من الوجهة الشرعية ، ناهيك أن آتيــه يعتبر فى نظر الناس آتياً لابغض الحلال الى الله .

واذا كان الاسلام قداعترف بأن الطلاق أبغض الحلال، فهلا كان حرمه كما حرمته الديانة المسيحية قبــله ؟

لا ؟ فان تحريمه يفضى الي حرج شديد بين نفسين خلقتا لتعيشا مهنأتين غير منغصتين . والنزاع فى الحياة الزوجية مجلبة لــكل ضروب الشرور ، وموحى الاسلام كان يعلم بأن الامم المحرمة له بعدأن تبلغ رشدها ستضطر الي اباحته، غير معتقدة بأوامر دينها، وهو الامر الذى حدث فان أكثر الامم عمدت الي اباحته فى القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين أخذ الطلاق فى الانتشار الي حد لا يكاد يتصور، وخاصة بالولايات المتحدة الامريكية، ولم يدر فى خلد أحد من المصلحين هنالك ولا فى أوروبا أن يسعى فى ابطاله: لان الحياة المدنية لايمكن أن تستقيم بدونه.

فالاسلام باباحته للطلاق والحالة هذه، وهو دين عملى أساسه مماشاة التطورات البشرية ومسايرة الانقلابات المدنيــة لتعديل مزاجها ، وتلطيف خشونتها ، لم يرد أن يكون دينا خياليا يقصره على المعابد، ويكون بين الناس وبين العمل به عقبات لايمكن تذليلها .

هنا يمــكن أن يقول قائل كيف يتفق أن يكون الاسلام قدأسبغ على المرأة حقوقا لم تنلها امرأة غيرها فى العالم، كماتقولون، وقد أعطى للرجل حقا صريحا فى تطليقها وهدم حياتها الزوجية فى أى وقت يريد ؟

نقول نعم ، أن الطلاق هذا كان يمــكن أن يعتبر من الامور الحاطة من كرامة المرأة المسلمة اذا كان الاسلام لم يساوها بالرجال فيــه .

فهذا الدين لم يمنح الرجل وحده حق الطلاق، ولكنه آسى بين الذكر والانثى فيه ، فقرر أن للمرأة أن تشترط فى عقد الزواج أن يكون حق الطلاق لها دون الرجل، فتصبح عقدة الزوجية فى يدها تحلها فى أى وقت تشاء . وقد استفادت كثير من النسوة من هذا الحق، فجعلن عصمتهن بأيديهن، وبقين مع أزواجهن على هذه الحالة، أو طلقنهم عند مارأين أن الصواب فى الانفصال عنهم . وكل مأذون شرعى وكل محكمة شرعية تقبل هذا النوع من الزواج بدون قيد ولا شرط .

وفوق هذا فانه أباح للمرأة حق الاشتراط على زوجها فى حالة تزوجه عليها أو تطليقها، بأن يدفع لها تعويضاً ماليا أو غير ذلك . فاذا كان المسلمون قد أهملوا الاستفادة من هذه الحقوق الشرعية، ورضوا أن يجعلوا بناتهم تحت سيطرة الرجال فلا يعيب شريعتهم ذلك، ولكن يصمهم هم بالتفريط فى حقوق بناتهم . ويخيل لي أنه لن يمضى وقت طويل حتي يتنبه الناس لهذه الحقوق فيستفيدوا منها، وبذلك تصبح الحماية التي يهبها الاسلام للنساء مضرب الامثال فى مشارق الارض ومغاربها .

هذا من أمر الطلاق أما مسألة تعدد الزوجات فان الاسلام لم يوجدها أيضاً، ولكنه جاء فوجد الناس كلهم معددين إلا الامة المسيحية . وكان العرب فى جاهليتهم من أكثر الامم تعديداً للزوجات، فرأى الاسلام أن يتوسط فى الامر فجعل للتعديد حداً لا يتعداه . وقرر أن من أقدم على هذا الامر لزمه العدل بين الزوجات، حتى قال الله تعالي : « فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما بعث يوم القيامة وشقه ساقط »

على أن للاسلام من اقراره مبدأ التعدد غرضا بعيد الغور فى الاصلاح الاجتماعى لا يدركه الا نافذو البصر فى العلم ، وهو أنه علم أن من الرجال من لا يمكن أن يردعهم عن المضى فى شهواتهم رادع ، وأن العقوبات المشددة والنصائح المؤكدة لا تكفى، فى كبح اندفاعاتهم الجسدانية ، فأباح لهم التعدد لا ليجد هؤلاء لهم مخرجا من الحرج فقط، ولكن ليحمى المرأة من شر مستطير وقعت فى مضايقه المرأة الغربية، ولقيت فيه من العنت ومرارة العيش ما لقيت .

نعم ، لان أمثال أولئك الرجال فى البيئات الغربية ، حيث لا يسمح بتعدد الزوجات، يتخذون صواحبات يسمونهن (بالمتريسات)، ومهما أساغ المجتمع رؤية هؤلاء (المتريسات) والعلم بأمرهن، فانهن لم يخرجن فى اعتباره عن طبقة المتجرات بنفوسهن، والراضيات بعيشة الهون محرومات من جميع الحقوق النسوية .

ولكن الاسلام لم يرض للنساء هذه الدركة الساقطة من الحياة، ولم يشأ أن يراهن قط عاهرات، ولا فى حكم العاهرات، محرومات من كل ضروب الحماية والحقوق الشرعية ، فرمى بشرعية امكان تعديد الزوجات الي ان لا تكون المرأة فى حالة من احوالها محرومة من حقوق تطالب بها امام القضاء ، والي ان لا تسقط من اوج كرامتها الجنسية الي حضيض النسوة المجردات من حقوقهن الاجتماعية .

نعم ، ان فى اوربا وامريكا عشرات الملايين من النسوة يعشن على حالة (متريسات) ، أو شبه (متريسات)، وقد يرزقن بأولاد يحرمون هم ايضا من حقوق الوراثة ، وقد تسببت من هذه الحالة مشاكل

اجتماعية لا تقف عند حد، جعلتها الجمعيات النسوية من ادلتها فى وجوب الحاق الابناء الطبيعيين بآبائهم غير الشرعيين، ولا يزلن الى اليوم يجاهدن فى هذه السبيل ولم يصلن الي شيء .

وبما أن غلبة الشهوات متأصلة فى طبيعة الكثيرين من الرجال، وان اتخاذ (المتريسات) لامناص منه فى كثير من الاحوال. فقد احتاط الاسلام لهذه الحالة باباحة تعدد الزوجات مع التكريه فيه كما رأيت، لا ليشبع الغريزة البهيمية للرجال، ولكن ليحمى المرأة من الوقوع فى حالة بؤس تتجرد فيها من جميع الضمانات الاجتماعية، وتبرز للمجتمع فى عداد النسوة الساقطات . فهو يريد ان تعامل المرأة فى جميع الاحوال باعتبار انها زوجة شرعية ذات حقوق، لا باعتبار انها ساقطة من كل حماية من القانون .

فمسألة التعدد لو نظر اليها من هذه الناحية، تصبح فى نظر العارفين بادواء الاجتماع وطبائع الانسان، من النظم العادلة الموضوعة لتدارك مشاكل اجتماعية غاية فى التعقد وسوء المنقلب، وهو يشكر على اساغتها على كراهيته لها من باب بعض الشر أهون من بعض .

فأى الحالتين أجدى على المرأة وأحفظ لكرامتها، ان تصبح زوجة ثانية او ثالثة او رابعة لرجل تستطيع ان تطالبه بنفقتها و نفقة اولادها، وترثه اذا مات ويرثه اولادها منه، او تضحى فى عداد المبتذلات لاحق لها ضده، ولا ترثه اذا مات ولا يرثه اولادها منه، فتمسى هى وهم فى حالة من البؤس يصيرون فيها عالة على الناس، مجردين من الكرامة فى نظر العشراء والخلطاء ؟

ان العالم الاجتماعى اذا تأمل فى هذا التشريع يأخذه العجب، وتلم به الحيرة، من صدور هذه الحكم الباهرة من رجل أمى كان يعيش فى القرن السابع للميلاد ، فلا يتمالك نفسه من الاعتراف بأن هـذا نور وصل اليه من السماء، لاسيما وأحوال العالم كانت لاتقتضى مثل هذا التجديد الذى لم يحلم بمثله فلاسفة اليونان المقدمون، ولا مشترعو الرومان الاولون ، بل ولا الاجتماعيون المعاصرون .

هذا ماعن لنا كتابته فى هذا الباب، وفى الفصل التالى ننظر فى بقية ماأتى به مؤلف كتاب (مسائل فى الدين) من الشبه ضد الاسلام ان شاء الله .

علاج الفقر فى الاسلام

يقول صاحب كتاب (مسائل فى الدين) فى شبهته التاسعة، إن محمداً لنشوئه فى الحرمان والفقر كان يفكر فى الفقراء، فأوصى بالتصدق عليهم، والي ذلك تعزى كثرة المتسولين حيث تدرس تعاليم الاسلام .

وهـذه فى الواقع ليست بشبهة ، ولـكنها تنطوى على معجزة اقتصادية لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، لمن يتذوق الامور الاجتماعية، ويفهم مكان العوامل الاقتصادية منها .

فلو كان يعلم مؤلف ذلك الكتاب انه ستخلق فى القرن التاسع عشر مسألة تضطرب لذكرها أعصاب العالم ، وتجتمع لها المؤتمرات تتلوها المؤتمرات ، وتقوم من أجلها حرب عوان لايخمد لها أوار بين العمل ورأس المال ، وتحترق فى سبيـل حلها مخاخ لرجال

ممتازين ، تسمى (مسألة الفقر) ويشار اليها فى عرف الاجتماعيين بكلمة (*Paupérisme*) ، قلنا لو كان يعلم ذلك لاضرب عن ذكرها ، لانها تثبت لخاتم النبيين معجزة من أكبر المعجزات الاجتماعية . أليس تفكيره فيما كان لايفكر فيه الناس على عهده، وكثرة تقليبته لمسألة لم يشعر الناس بخطرها وان كانت من أكبر عوامل الانحلال الاجتماعى فى كل مجتمع ، يعتبر من أعجب الامور ، ويدل على أن دينه جعل ليبقى دين البشرية مابقى الانسان ؟

فاصغ الي أحدثك عن تاريخ مسألة الفقر، وما آلت اليه وما عولجت به، مستهديا بمقررات علم الاجتماع فأقول :

فى أية أمة قديمة أجال الباحث نظره، وجد طبقتين من الناس لاثالثة لهما ، الطبقة الموسرة والطبقة المعسرة ، ووجد بازاء هذا أمراً جديراً بالملاحظة، وهو أن الطبقة الموسرة تتضخم الي غير حد ، والطبقة المعسرة لاتفتأ تهزل حتي تلتصق بأديم الارض معيية رازحة ، فيتداعى البناء الاجتماعى لوهن أساسه، وقد لايدرى المترفون من أى النواحى خر عليهم السقف .

كانت مصر فى عهدها القديم جنة الله فى الارض ، وكانت تنبت من الخيرات ما يكفى أضعاف أهلها عدداً ، ولكن الطبقة الفقيرة فيها كانت لاتجد ماتأ كله . . . لان الطبقة الموسرة كانت لاتترك لهم شيئاً غير حثالة لاتسمن ولاتغنى من جوع . فلما أصابتها المجاعة على عهد الاسرة الثامنة عشرة باع الفقراء أنفسهم للاغنياء فساموهم الخسف وأذاقوهم عذاب الهون .

وفى مملكة بابل ونينوى كان الامر على ما كان عليه فى مصر ، لاحظ للفقراء من ثمرات بلادهم ، على انها كانت تسامى بلاد الفراعنة نماء وخصوبة، وكانت تجرى مجراها فارس.

أما لدى الاغارقة الاقدمين، فكان الامر لايعدو ماتقدم ، بل تروى عن بعض ممالكهم أمور تقشعر من هولها الجلود . فقد كانوا يسوقون الفقراء بالسياط الى أقذر الاعمال ، ويذبحونهم لاقل الهفوات ذبح الاغنام .

أما فى اسبارطا من ممالكهم، فقد كان الموسرون تركوا للمعسرين الارض التي لا تصلح للانبات، فذاقوا ألوان الفاقة كلها غير مرحومين .

وكان الاغنياء فى أثينا يتحكمون فى الفقراء الي حد انهم كانوا يبيعونهم بيع العبدان اذا لم يؤدوا لهم ما كانوا يفرضونه عليهم من الاتاوات .

أما فى رومية منبع الشرائع والقوانين ، ووطن الفقهاء والاصوليين ، فقد كان الموسرون مستولين على العامة، ومتميزين عنهم تميزاً يجعل العامة بازائهم كالطائفة المنبوذة لدى الهنديين، وما كانوا يرضخون لهم بصبابة إلا بعد أن ينال منهم الاعياء، فيهجرون المدن ويقاطعون الجماعة مرغمين .

قال العلامة المؤرخ « ميشليه » فى المملكة الرومانية من هـذه الناحية :

« كان فيها الفقراء يزدادون كل يوم فقرا، والاغنياء يزدادون غنى ، وكانوا يقولون ليهلك الوطنى ولنمت جوعا اذا لم يستطع أن يذهب

الى ساحات القتال »

فلما زالت الدولة الرومانية وقامت على انقاضها الممالك الاوربيـة ازدادت حالة الفقراء سوءاً، فكانوا في جميع أصقاعها يباعون كالماشية مع أراضيهم .

فلما هل القرن التاسع عشر وولدت العلوم الاجتماعية ، وتنبهت العقول لعوامل التأليف والتفريق فى الامم ، شعر الكافة بفداحة داء الفقر، وأدركوا انه هو الذى ينخر عظم الجماعات ويفسد كيانها العام .

فارتأى بعضهم أن يحث الاغنياء على التصدق على الفقراء ، فاعترض عليهم بأن هذا يفضى الي التواكل والتكاسل، فيخسر المجتمع جهود عماله ونشاطهم .

واستحسن بعضهم أن تفتح لهم أبواب المهاجرة وأن يدعوا اليها ، فاعترض عليهم بأن هذا يفضى الي نزوح الفئات النشطة الي الخارج وفيه خطر شديد .

فاهتدى أخيراً الى تأليف الجمعيات التعاونية فأثمرت خير الثمرات ، فان هذه الجمعيات استطاعت أن تدرك حاجات العاملين وجهات ضعفهم، وان ترفع أمورهم للحكومات، باذلة السعي في استصدار تشريعات مفيدة لوجودهم ، ومحسنة لاجورهم ، وان كانت كثيراً ما تثير القلاقل وتمخض مجتمعاتها مخضاً عنيفاً . وهذه المسألة أكبر المسائل الاجتماعية خطراً ، وأشدها شغلا لاذهان الناس ، ناهيك انه قد أصبح اليوم في الارض نحو من ثلاثين مليوناً من العمال فى حالة عطل مطلق، لايجدون مايعملون ولامايأكلون . وقد اضطرت الحكومات أن تنفق عليهم

من مال الامة، فهل يعد مؤلف كتاب (مسائل فى الدين) هذه الاعانة صدقة تغرى بالكسل وتكثر المتسولين، حيث تنتشر تعاليم هذه المدنية الساحرة ؟

لهذا السبب كان يهتم خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم بأمر الفقر والفقراء ، فانه قدر الفقر أحسن تقدير فقال : « كاد الفقر أن يكون كفراً » وقال : « اللهم انى أعوذ بك من الفقر » . ألا ترى كيف أن هذا الفقر يهدد اليوم أكبر مدنية أنتجتها الجهود البشرية بالتحطيم ، ويتوعدها بالمحق ؟ أن من لا يريد أن يرى هذا الامر فهو يريد أن ينكر الشمس وهى فى كبد السماء .

فماذا فعل الاسلام حيال هذه المسألة الخطيرة ؟ أوجد نظاماً اقتصادياً استوعب فيه جميع الاصول العمرانية المزيلة من خطر الفقر، والمنجية من آثاره، فأجبر الاغنياء على دفع صدقة عن أموالهم ، والصدقة فى عرفه هى الزكاة، والزكاة ضريبة اجبارية على كل ذى مال تجبى منه باعتبار انها أموال حكومية لاغراض اجتماعية ، فهى غير الصدقة التى تثبط الهمم وتغرى بالكسل . وقد جعل الاسلام أمر التصرف فى هذه الاموال للحكومة، فهى التي تعمل بما تمليه عليها الحاجة الوقتية والحالة الاجتماعية . ومثل هذا الاخذ من الاغنياء قد لجأت اليه الامم الغربية قاطبة اليوم باسم الضرائب على رؤوس الاموال وعلى الدخل وعلى المواريث ، والغرض منها كلها تدارك حاجات الفقراء، وقد بزهم الاسلام جميعاً وسبقهم بثلاثة عشر قرناً بتقريره نظام الزكاة . وقد قصد من ذلك احداث ردفعل ازاء تضخم الاغنياء .

أما قول (ميشليه) أن الاغنياء فى كل مجتمع كانوا يزدادون غنى والفقراء فقرا. فهـذه الحركة الاندفاعية المستمرة من الاغنياء لابد لها من حركة عكسية مستمرة مثلها، ليحفظ التوازن من تماسكيهما. فما قرره الاسلام من الزكاة يمنع من تركز المال فى أيدى رجال معدودين، وحرمان الكافة منه حرماناً مطلقاً .

ولم يهمل الاسلام ازاء هذا الحل بقية الاصول العمرانية المخففة للفاقة، فندب الي المهاجرة فقال تعالي : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغماً كثيراً وسعة ».

وعنى عناية خاصة بالحث على الاجتماع للتعاون فقال تعالي : « وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان ».

فالاسلام كما ترى قد مزج الاصول المخففة للفاقة، وجعل من مجموعها نظاما آلياً محكما يعمل فى المجتمع عمل الاداة المنظمة للحركة الاقتصادية . فمنع بفرض الزكاة تركز المال كلـه فى أيد معدودة ، وسن بالحث على المهاجرة تصريف العدد الزائد من المجتمع الي البلاد الاخرى تخفيفاً للضغط عليـه ؛ وجعل من حثه على التعاون هيئة تصلح للتوفيق بين العمل ورأس المال .

وقد حث الاسلام بجانب هذا على الصدقة الاختيارية، فحاكى فى ذلك جميع الاديان ومذاهب الاخلاق ، فهو لم يبتكر هذه الفضيلة ولـكنه أيدها وحض عليها. وأبى أن تكون هذه الصدقة سبباً فى تكاسل بعض طبقات المجتمع . والدليل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا هاجر اليه أفراد من جهات بعيدة ولم يجدوا لهم مرتزقا، والامة

فى أول تكونها أمرهم أن يقيموا بالمسجد ، فما زالوا يكثرون حتي بلغ عددهم أربع مئة . فكانوا اذا طرأ قتال خرجوا معه ، فاذا عادوا أووا الي المسجد . وكان الناس يتولونهم بالنفقة . فلما تولي عمر الخلافة واتسعت مملكة العرب صرفهم من المسجد قائلا : لقد احتفظ النبي صلى الله عليه وسلم بكم فى عهد لم تكونوا تجدون فيه مرتزقا، ولكن اليوم قد اتسعت فى وجوهكم أبوابه، فامضوا لشأنكم واعملوا مع العاملين .

وقد أخطأ مؤلف كتاب (مسائل فى الدين) فى دعواه أن محمداً كان عائشاً فى أول أمره فى الحرمان، ولذلك حث على الصدقة. فانه لما توفى والده كفله جده عبد المطلب سيد قريش الذى كانت داره مثابة للغادين والرائحين . فلما مات جده كفله عمه أبو طالب، وهو من أشهر سادات قريش . ولم يكن النبي نفسه عاطلا عن العمل ، بل بدأ عمله وهو صغير فى الرعاية ، فلما ترعرع واشتد تعاطى التجارة ، ومازال بها حتي بعثه الله رسولا للعالم كافة . ولم ينقل انه كان على فاقة، أو انه كان محروما من خفض العيش .

أليس كل ماتقدم يثبت أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان أكبر بناة الامم ، وأعظم صاغة الشعوب ، إذ فكر، وهو يقيم صرحه الاجتماعى الضخم، فى مسألة الطبقات الاجتماعية، فجاء بنظام اقتصادى هو عينه الذى هديت اليه الامم فى القرن العشرين، لتتقى به انحلال وحداتها ، وتداعى أركانها ؟

وهنا أسمح لنفسي أن أشكر مؤلف كتاب (مسائل فى الدين)

إذ هاجنى بشبهته هذه لبيان معجزة للنبي لم يلاحظها السواد الاعظم من الناس، ولها فى العصر الراهن من القيمة ماليس لغيرها، لاشتغال المفكرين كافة فى تدارك أحوال الطبقات الفقيرة، وهذا من أغرب ماالتفق للمتناظرين .

دفع شبهات عن القرآن الكريم

يقول صاحب كتاب (مسائل فى الدين) فى شبهته الاخيرة عن القرآن الكريم، انه مشحون بأخبار المشاهد الروحانية البعيدة عن العقل ، وانه ينقصه البيان والترتيب ، وهذا من أعظم علل الاملال والارتباك لهذا الكتاب مما جعله غذاء عقيما لذويه !

ونحن نطلق كلمة شبهة على مثل هذه العبارات تسامحاً، لان التهم فيها غير معينة تعييناً واضحا، فكل كتاب سماوى أوانسانى يمكن رميه بهذه الوصمات بحق أوبباطل ، والذى يتصدى للرد عليها يضطر أن يجلو عنها الغموض الذى يحيط بها أولا ثم يعنى بمناقشة قائلها:

فهل يعنى صاحب كتاب (مسائل فى الدين) بقوله أن القرآن مشحون بأخبار المشاهد الروحانية البعيدة عن العقل، أنه يكثر من ذكر الملائكة والجن والوحى والثواب والعقاب الاخرويين الخ الخ ؟ ان كان يعنى هذا فكل الكتب المعتبرة انها سماوية تذكر كل هذه الامور، ومنها ماتوسع فيها الى حد بعيد، إذ أثبتت ان لله جسداً وتحيزاً ، وانه قابل بعض الانبياء وجها لوجه وتحدث اليهم ؛ وان منهم من أمسك به ولم يفلته حتي حباه بلقب جديد ، وقد وصفت هذه الكتب

الخالق بأوصاف المخلوقين ، فأسندت اليه الضحك والبكاء والندم والمحاباة والقسوة الخ الخ . على حين أن الاسلام قدقرر انه دين العقل، وانه لايذكر شيئا يصعب فهمه، ولم يكلف الآخذ به الا بما يمكنه ويستطيع التدليل على صحته ، وهذه ميزة ليست لدين غيره . فقد زعم حفظه تلك الاديان انفيها ماهوفوق العقل،وانه يجب على الآخذ بها اهمال مواهبه الادراكية فى الامور الاعتقادية، والبون لاحد له بين الفريقين .

فالأجدر بنا مادامت هذه الشبهة من الغموض بهذه المنزلة أن ندعها حتي يعين صاحبها مراده منها .

أما قوله أن القرآن ينقصه البيان ، فهذا من أغرب ماسمعناه من الشبهات على هذا الكتاب الكريم . فان ساغ لمنكر أن يرميه بكل مايطوف بخياله من التهم ، فلا يسوغ لهأن يرميهبالتجرد من البيان . أما بلغه أن هذا الكتاب قد اعتبره العرب معجزاً فى نظمه ومعناه معاً ، وانهم قد قصروا عن الاتيان بمثل سورة منه وقدتحداهم بذلك تحديا ، فقال تعالي : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا، ولن تفعلوا،فاتقوا النار التيوقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » ، وقال تعالي : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » ؟

وقد سلم العرب بايمانهم به بأنه معجز حقا . وقدساد هذا الرأى حتي فى العهد الذي بلغت فيه البلاغة العربية أوجها الاعلى بدخول

الاساليب الفارسية واليونانيه والهندية اليها فى القرن الثالث للهجرة ، وقد وضعت مؤلفات تكشف عن أسرار بلاغته من فحول البلاغة أنفسهم، وكل ماألفه المؤلفون فى علوم البيان والبديع والمعانى اعتمدوا فيه على أمثلة من القرآن ، باعتبار انه ينبوع لاينضب معينه لجميع ضروب البلاغات اللفظية والمعنوية ؛ فهل مؤلف كتاب (مسائل فى الدين) يمزح بقذفنا بهذه الشبهة ، أم هو يقول مايعتقده فيدلنا بذلك دلالة ناطقة على انه لايعرف العربية ، وانه لايحسن النقل عن المستشرقين الذين عرفوها، وشهدوا للقرآن ببعض مايستحقه من هذه الناحية ؟

بقى قوله أنه خال من الترتيب ، يريد بذلك انه غير مرتب على فصول وأبواب كسائر الكتب، فلم توضع أغراضه كل فى الفصل أو الباب الخاص به ، بل مزجت مزجا غير مراعى فيه نظام التأليف . قال وهذا سبب الملل الذى يعترى سامعه وقارئه ، وعلة للارتباك فى فهمه ، مما جعله غذاء عقيما لذويه . وفاته أن هذا الكتاب لو كان مختلقا لتوخى فيه مؤلفه الترتيب الذى يتطلبه صاحب كتاب (مسائل فى الدين) . فقد جرت العادة أن يجلس الذى يريد أن يضع كتابا الي ناحية ويفكر فى نظامه وأغراضه، فيجعل لكل طائفة من المواد فصلا، ولكن القرآن ليس بكتاب وضعى ، ولكنه وحى نزل عند حدوث الحوادث وطروء الطوارىء، فمنه آيات نزلت للدعوة الي الدين، وأخرى للرد على المنكرين، وغيرها للاجابة على السائلين ، وسواها للفصل بين المتنازعين ، وطائفة للحث على الجهاد ، ومثلها للحض على مكارم الاخلاق الخ لخ مما لا يكاد

يحصى ، وكلها نزلت نجوما ومرتبة على الحوادث الوقتية. فلقد كان الوحي لدى الطائفة التي أخذت بالاسلام لاول عهدها بمنزلة العقل المدبر لها، تستهدي به في المشكلات ، وتسترشد به في تذليل العقبات ، وتتحرك تحت أملائه نحو ماجل وماحقر من الاغراض ، إلاماترك لارادتهم في بعض الشؤون، تمرينا لهم على الاكتفاء بعقولهم متي استعدوا له بعد حين . فهو مجموع اشراقات من الوحي اقتضتها الحوادث وقت حدوثها ، وهذه الحوادث تتكرر في كل جيل ، وتتردد في كل مجتمع ، وكثير من آيات القرآن نزلت في اصلاح القلوب ، وتهذيب النفوس ، وتقويم الاخلاق ، وبعث الهمم الي جلائل الاعمال ، وتثبيت العاملين في جهادهم ، ونفث روح المثابرة في كيانهم ، فهذا المجموع من اشراقات الوحي متي قرئ أوسمع استولي على جميع مآخذ النفوس، وتسلط على كل مسارب العقول ، وتحكم على جمهرة مواطن الاقتناع من الصدور ، فلا يجد تاليه أوسامعه محيصا من الاذعان اليه ، والاستخذاء له، لانه يحرك جميع الاوتار في الروح الانساني دفعة واحدة ، فيؤخذ سامعه به أخذاً ، كأنه قد غمرته موجة من السحر فلم تدع له متنفسا في غيره من الامور ، ولم تترك له متملصا الى سواه من الشؤون . وقد شعر بتأثير القرآن هذا كل من قرأه ومن سمعه سواء أكان من أهل هذا الدين أم لم يكن ، فهل هذا التأثير السحرى هو الذى يعبر عنه صاحب كتاب (مسائل في الدين) بأنه موجب للاملال ، وباعث الي الكلال ! ان كان هو هذا فيكون قد سمى الشيء بغير اسمه ، وأطلق عليه مايدل على عكسه .

أما انه غذاء عقيم للآخذين به، والمعولين عليه، فهذا من أعجب ضروب المنطق. فان المعلوم بالضرورة أن هذا الكتاب نزل فى قبائل متفرقة الاهواء، مشتتة الهموم، موزعة الجهود، متنافرة المطالب، لاهم لها إلا التناحر والتناهب، ولا عهد لها بنظام اجتماعى، ولا بغرض سياسى، ولا بوحدة اقتصادية، ولا بنزعة عمرانية، ولا بعاطفة علمية، فجمع متفرقها، ووحد وجهتها وغايتها، ونظم شؤونها، ثم رمى بها كتلة مندمجة الاجزاء، حاصلة على جميع مقومات الحياة وعوامل التطور، فى بهرة المجتمعات البشرية، حيث مزدحم المطامع، وملتطم المصالح، ومعترك الاهواء، وحيث التناحر المعاشى يسوق الجماعات للتآخذ بالايدى والمناكب، وللترامى بالحديد والنار، فلم تلبث أكثر من ثمانين سنة حتى أوجدت لنفسها ملكا لا تغرب عنه الشمس، لم يتسن لاكبر الامم الفاتحة مثله ولا الرومانيين، ولا اتفق لاوسع الامم المعاصرة استعماراً شبهه الي اليوم، فانتهت اليها خلافة الارض فى العلم والفلسفة والفنون والسياسة، وكانت سبباً فى انتهاض العالم من كبوته، واقالة المدنية العالمية من عثرتها، شهد لها بذلك الاقربون والابعدون، واعترف لها به الموالون والمعادون، فهل هذا أثر الغذاء العقيم الذى أتى به القرآن لذويه، كما يقول صاحب كتاب (مسائل فى الدين)؟ وهل هو جاد أو هازل فيما يقول؟

وبعد فاننا وقد انتهينا من رد هذه الشبهات لا نزال نرانا فى حاجة الي الكتابة، لانه يخيل الينا أن قوماً يتوهمون أن الاسلام دين يمكن هدمه، وهذا جهل عظيم بماهيته، لا يتفق وتقدم المعارف فى هذا

العصر ، لذلك نرى أن نأتى بفصول جديدة نبين بها أنه خاتمة الاديان وانه حاصل على جميع ضروب المناعة العلمية ، وعلى كل عوامل البقاء والخلود ، وأن العالم كله سيتأدى اليه بعد أن تضعف عوامل التعصبات الدينية المذمومة ، وموعدنا بفاتحة هذا البحث الفصل التالى إن شاء الله .

فهـــــرست

صحيفة

كتب أخرى للمؤلف

(١) المصحف المفسر الذي ما نشر منه تحت الفهرست

(٢) مقدمة التفسير هي كتاب يقع في ٤٤١ صفحة كبيرة تبين أغراض القرآن الكريم وأصوله وتكشف عن مذهبه في جميع مناحي الفلسفة الدينية ثمنها ٥ قروش

(٣) على أطلال المذهب المادي، أربعة أجزاء ، فيها أبحاث مستفيضة على مذهب الملحدين وآرائهم الفلسفية، والكر عليها بالردود المناسبة لها بالاستناد الى العلم الرسمي نفسه . وثمن هذه الاجزاء الاربعة ٣٧ قرشا.

(٤) نقد كتاب الشعر الجاهلي ، وفيه بحوث في الاجتماع والادب والحكمة الاسلامية ثمنه ١٠ قروش

(٥) الوجديات هي مجموعة مقامات خيالية كنا قمنا بنشرها مجتمعة لبث الادب والاخلاق والحكمة في قالب قصصي ثمنها ١٠ قروش

(٦) دستور التغذي ، كتاب ترجمناه عن كتاب علماء التغذية فيه تحليل لعناصر الاغذية وما يلزم لكل جسم منها. وهو كتاب حافل بمعلومات صحية يجب الالمام بها ثمنه ٦ قروش

معارف القرن العشرين

مكتبة كاملة فى عشرة مجلدات تقع فى ٨٦٤٠ صفحة

ليس فى الناس احد ، وبخاصة فى هذا العصر لا يحتاج الى دائرة معارف جامعة تسعفه بما يحتاج اليه من العلم فى اى منحى من مناحيه ساعة طلبه . فهل اتفق وجود من لا يريد معرفة معنى كلمة غريبة او حكم دينى او إحصاء عن مملكة أو اعراض مرض وعلاجه اواسعاف لحادثة مفاجئة من خفقان أو دوار أو جرح او اغماء الخ الخ أوفائدة علاج ، اوخواص عشب اوتابل او اصل فلسفى أوتدبير غذائى ، او قانون صحى ، او نظام منزلى الخ مالا يحصى من المطالب؟ كلنا بحاجة الي هذه المجموعة العلمية المركزة التي تؤتى كل طالب بما طلب كأنهم مجمع علمى دائم الانعقاد يسعفك بجواب سؤالك من اوثق المصادر وببيان واف لا تحتاج معه الى المزيد.

هذه المجموعة العلمية هي دائرة معارف القرن العشرين وثمنها المطلبة ٣٠٠ قرش

وقد جعلنا لها نظاما للتوزيع فقسمناها الي عشرين قسما نرسل كل واحد منها فى اول كل شهر الي المشترك فيها بالتتابع محولا عليه خمسة عشر قرشا

ومن شاء أن يرسل له قسمان او ثلاثة أوأربعة اوا كثر ارسلناها اليه محولا عليها ٣٠ او ٤٥ او ٦٠ قرشا

أما البلاد الاجنبية فثمن المجموعة ٣٨٠ قرشا مصريا